المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الدموع

تأليف: محمد حجازى
ترجمة : سامية شاكر عبد اللطيف
مراجعة: محمد علاء الدين منصور





1191





الإبداع القصصى

الدموع
(رواية)

المركز القومي للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: ١١٩١
- الدموع (رواية)
- محمد حجازى
- سامية شاكر عبد اللطيف
- محمد علاء الدين منصور
- الطبعة الأولى: ٢٠٠٨

هذه ترجمة رواية:
سرشك
تأليف: محمد حجازى

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya st. Opera House، El Gezira، Cairo
E-mail: cgyptcouncil@yahoo.comTel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

الدموع

(رواية)

تأليـف: محـــمد حجــــازى
ترجمـــة: سامية شاكر عبد اللطيف
مراجعة: محمد علاء الدين منصور



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

حجازى، محمد
الدموع (رواية) تأليف: محمد حجازى، ترجمة وتقديم: سامية شاكر عبد اللطيف، مراجعة: محمد علاء الدين منصور-ط١
القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠٠٨.
٢٢٠ص؛ ٢٠سم
١- القصص الفارسية
أ- عبد اللطيف، سامية شاكر (مترجم ومقدم)
ب- منصور، محمد علاء الدين (مراجع)
ج- العنوان ٨٩١ر٥٥٣

رقم الإيداع: ٢٠٠٨/١٣٥٦٢
الترقيم الدولى: 3 - 789 - 437 - 977
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقديم المترجمة

عاصر "محمد حجازى" فترة دقيقة من تاريخ إيران، وتأثرت حياته بما شهدته تلك الفترة من اضطرابات وقلاقل منذ نهاية سلطنة "آل قاجار" وبداية سلطنة "آل بهلوى" وازدهارها ونهايتها.

وعلى المستوى الثقافى نرى أن النظم والنثر الفارسى كانا أكثر رقيًا وتقدمًا، ويرجع السبب فى هذا التقدم النسبى للأدب الفارسى إلى تلك الحركة الثقافية التى ظهرت فى عصر "آل قاجار"، كما كان الاتصال بأوروبا فى ذلك الحين من أهم عوامل ظهور الحركة الثقافية. وقد تنوع إنتاج محمد حجازى الأدبى بين الرواية والمسرحية والمجموعات الأدبية، والتى تعد نموذجًا رفيعًا للأدب الاجتماعى وصدى لمشكلات بلاده وما تعانيه.

يعد حجازى رائدًا من رواد التجديد فى الأدب الحديث، فقديمًا كانت الموضوعات الحماسية هى السائدة، وحديثًا توجه الأدب نحو الشعب ومشكلاته الاقتصادية والاجتماعية. ورواية "الدموع" تمثل هذا الاتجاه الحديث، فهى تصور أخلاق المجتمع البرجوازى وعاداته وما يعانيه من مشكلات، والغيرة المفرطة أسبابها وأضرارها؛ وهكذا استطاع محمد حجازى أن يجعل من الأدب وظيفة اجتماعية يؤديها بصدق بعيدًا عن كون الأدب مجرد ترف لا يحمل رسالة.

من المعالم المهمة والإيجابية فى فكر محمد حجازى قضية التطور، كما اتسمت أعماله بطابع تنويرى، وحاول فى كل كتاباته أن يقدم حلولاً جذرية للمشكلات التى يعانى منها مجتمعه آنذاك، فنراه يدعو إلى مجتمع تسوده الحرية الواعية، وضرورة التضامن بين أفراد المجتمع، كما طرح العديد من القضايا مثل الاغتراب، والحنين إلى الوطن، وناقش قضية البطالة، والعمل الحر، والبعد عن التقيد بالعمل الحكومي. وعلى هذا فقد جاءت أعماله غنية بكثير من الخصائص المميزة والجديرة بالاهتمام، والتى قام بمعالجتها بأسلوبٍ فنيٍّ متميز.

سامية شاكر

كنا في الربيع، وكنت أنا شابا، ووقت العصر وبجوار السماور[1] بينما كانت الزهور تتفتح وتبتسم كانت زهور الطاوس تنثر عطرها وتتساقط واحدة واحدة على رءوسنا من الشوق.

في ذلك اليوم كانت "مريم" ضيفتنا منذ الصباح، وحتى ذلك الوقت كنا قد قلنا وسمعنا وضحكنا قدر المستطاع. لكنها كانت في عيني ما زالت البنت الصغيرة التي كانت تلعب معنا منذ الصغر، وليس لها معنى آخر. فجأة سقطت زهرة طاوسية على رأس البنت، وأمسكت بشعرها فخفق قلبي، وتبدل شكل الدنيا ولونها في عيني، وبدا لـــ"مريم" شكل ومعنى جديد. ظهرت روضة العشق بوجداني من تلك الوردة الصفراء.

منذ تلك اللحظة وإلى الآن عندما أرى زهرة الطاوس، أتذكر تلك الروضة، وأشعر برقة ممتزجة بغم العشق وحرقة الذكرى وألم الحسرة. فبعيدًا عن إيران حينما أتذكر الوطن، فإن هذه الحالة تنتابني.

عندما كان الدكتور "ريتشارد آتينك هوسن" المستشرق الأمريكي يتحدث معي في واشنطن باللغة الفارسية عن طهران وعن قرية "فيشر آباد"، كنت أشـــعر وكأنني أرى ذلك البساط وتلك الوردة.

---

(١) موقد فلزي لعمل الشاي.

الطاوسية التى سقطت فى شعر مريم أمام عينى، أسمع منه ذكريات العمر، عن العشق والألم والمتعة الممتزجة بتاريخ إيران العزيزة.

لم يكن يعرف، لكنى أحببته أكثر من كل عظماء أمريكا، لذلك كنت أقضى معه الوقت بقدر ما أستطيع. أمريكا هى أرض العظمة، ولكن ما يأسر قلبى فيها أكثر من أى شىء آخر هو لطف وود ذلك الشعب، الذى يحتضن كل شخص ومن أى جنس، يقيم معه علاقة حب وصداقة. عاصمة تلك البلد بها آلاف المحاسن، لكن ما يفتننى أكثر من أى شىء هو خضرة تلك العاصمة ونضرتها، فهى روضة غناء بين الغابات الشاسعة والأنهار مترامية الأطراف. ومع هذا فلو لم يكن حديث ذلك الرجل العالم القدير الذى يتمتع بصفاء القلب والعقل معًا لم يكن الوقت ليمضى علىَّ بتلك السعادة، فى تلك الروضة الغناء وبين ذلك الشعب الودود، بعيدًا عن الوطن.

ذات يوم كان قد دعانى لتناول الغداء، وأثناء ما كنا نبحث عن مكان، قرأت اسمًا أرمنيا على باب أحد المطاعم فتوقفت. قلت: ماذا لو تناولنا الطعام هنا؟ قال: يوجد هنا مطعم أفضل.

فقلت: بل هنا أفضل. لكنى لم أقل لماذا، لقد أعجبت بذلك المكان لاسمه الأرمنى الذى يحمل ذكريات عن المشرق، وربما عن إيران. وبالمصادفة اقتربت وتأكدت من البواب، فعلمت أن والد

صاحب المطعم كان إيرانيا، وهو لا يزال يعرف بضع كلمات من اللغة الفارسية.

جلس صديقي على رأس المنضدة، وجلست أنا في الوسط وشغلنا بتناول الطعام. رفعت رأسي ذات مرة، ورأيت أن ثلثي القمر المضيء ظاهر، فقد وضعوا المنضدة التي أمامنا بطريقة ملتفة قليلا، بحيث كانت تظهر ثلثي وجه تلك الحسناء والتي كانت تجلس على رأس تلك المنضدة، أما ذلك الرجل الذي يجلس في وسط المنضدة، فلم يكن يظهر منه إلا مؤخرة رأسه.

جميلات أمريكا معروفات، لكن لم يفتن عيني وقلبي أي جمال بهذه الطريقة. ولأنها لم تكن مزدانة ولا ترتدي الملابس الجميلة، ولم تزين الجدائل، فقد استطعت أن أراها جميلة كملاك عار، بلا زينة أو حلية. لم تكن فقط تأسرني تلك الحمرة وذلك البياض المزيف، بل لم تكن تأسرني تلك الحركات الغمازة للعين والحاجب والفم واليد والعنق، التي تنادي وتطرد في آن، وتزجر وتصالح أيضًا بإشارة.

الجميلات في الأماكن العامة عادة ما يلفتن أنظار مشاهديهم بنظرات نصف هاربة، وبعد أن يلتفت البعض إلى جمالهن بوجوههن، يشرن إلى أزواجهن بغمازة، فإن كان ثريا، يقلن بلسان حالهن: "انظروا كيف أمتطي مركبًا ثمينة!"، وإن كان فقيرًا فإنهن

يُنحن بالعين والحاجب أن "انظروا وليحترق قلبكم لحالى، أتعرفون أن هذه هى مركبتى المحطمة التى تستحقنى؟".

لكن عين تلك المرأة لم تكن تلتفت أو تنظر إلا إلى زوجها، كالأم التى تطعم طفلها، كانت تأكل لقمة وتحرص على لقمتين له. كانت تملأ كوبه وتغرف له الطعام من الطبق الكبير وتضع الخبز الطازج قرب يده. كانت الحيرة تبدو على وجهها، تريد أن تعرف هل يحب هذا الطعام أو لا. وكانت تتحدث معه معظم الوقت، ويبدو من ضحكاتهما أنهما يتحدثان حديثًا ممتعًا. لكن أحيانًا كانت عين السيدة ووجهها ويدها تتحجر فجأة، وتظل بلا حركة، فكان قلبى يغوص فى كل مرة بسبب الحزن والحيرة التى تبدو على وجه ذلك الملاك.

فقال مضيفى الدكتور: أرى أن تلك المنضدة تجذب فكرك ونظرك. فقلت: لأننى لم أر مطلقًا جمالاً وبساطة وود بهذا القدر. قال: لكن إذا عرفت السبب العجيب لهذا العطف وقصة هذا العشق والجمال، فإن حيرتك ستزداد أضعافًا.

جاء الخادم، وتوقف بيننا الحديث. قدم الفاتورة، ووقفنا نحن، فهناك آخرون يقفون فى انتظار مغادرتنا. أثناء ما كان الدكتور يضع الحساب بالصندوق، التفت بهدوء وتلصصت نظرة إلى وجه ذلك الرجل لأرى ما هذا الأسد الذى أوقعها هكذا. وياللمصادفة فقد كانت رأسه لأسفل، يتناول الطعام، لم أستطع أن أرى أكثر من ذلك لأن

هذه السيدة زجرتنى بنظرة غاضبة، حتى إننى لو لم أدر رأسى ربما كنت أسمع ما لا يليق أيضًا .

حينما خرجنا من المطعم، قال الدكتور: إن شرح حال هذا الرجل وتلك المرأة جدير بالاستماع، لكن لا يستطيع أحد أن يحكى هذه القصة أفضل منهما أنفسهما. فقلت: وهل أستطيع أن أسمع هذه القصة منهما؟ فقال: بالتأكيد تستطيع.

صمت وكنت أتوقع مثلاً أن يقول: "أحب أن تتعرف على هذه الأسرة"، أو يقول: "سأطلب منهما أن يهيئا لك وسيلة لتلتقى بهما...".

لكنه لم يقل شيئًا من هذا، كنا نسير حتى وصلنا إلى مكتبة، فدخل وأخذنى معه.

شغلت أنا بمشاهدة الكتب، ذهب هو واشترى كتابًا وأحضره. عندما خرجنا من المكتبة، أعطانى الكتاب الذى اشتراه وقال: إن قصة هذه المرأة وزوجها فى هذا الكتاب بخط يدهما. لقد اشتركا فى كتابته. فاقرأ وتعجب.

***

كان من المقرر أن نذهب معًا فى تلك الليلة إلى السينما. اعتذرت ووافق هو لأنه رأى أننى لا أميل إلا لقراءة ذلك الكتاب.

لو أننى كنت فى حالتى الطبيعية، لكنت قرأت ذلك الكتاب مطمئنا، ونسيته بسهولة كسائر الكتب. لكن بعد رؤية تلك المرأة وذلك الرجل بكل ذلك العطف، ولأن هذا العطف له سبب عجيب، فقد كنت شغوفًا عجولاً لمعرفة ذلك اللغز، حتى إننى كنت أمرر الكلمات بسرعة من تحت عينى، وما أكثر العبارات التى كنت أعبرها ولم تقرأ. وهكذا، لم تستمر قراءة تلك السيرة أكثر من ساعة أو ساعتين على الأكثر، وكل ما أكتبه لكم متمثلاً أمام عينى بعد عام ونصف، ولا تزال وقائع تلك القصة الرئيسية وتفاصيلها بذاكرتى.

تتضمن هذه القصة قسمين، الجزء الأول كتبه الزوج بالتفصيل، والجزء الثانى وحتى نهاية الكتاب نقلته لنا السيدة .

وهذا هو الجزء الأول...

***

يحمل كل شخص ذكريات طفولته الأولى، وما يتعلق بذهنى من فترة الطفولة هو ذكرى ذلك اليوم الذى جمعت فيه جدتى أطفال الأسرة بمنزلها وأقامت مسابقة للجمال، وكان بالمجلس أيضًا بعض الرجال والنساء من غير أعضاء الأسرة، ولم أكن قد رأيتهم قبل ذلك اليوم. كنت أشعر بالضيق لوجودهم، وكان لأحدهم لحية طويلة ولعل أكبر خوفى كان من ذلك الرجل، قدم لى قطعة حلوى وضحك فى وجهى. تحيرت لتلك الضحكة التى لا تتفق وتلك اللحية السوداء، لم

أكن أعرف هل ينبغى على أن أسلم للضحكة والود أو أخاف من اللحية الطويلة.

لم أدرك آنذاك ما المراسم التى فعلوها وماذا قالوا، حتى التفت إلىَّ الجميع مرة واحدة وصفقوا، كانوا يضحكون فى وجهى، وكل واحد منهم يأخذنى بنوبته على الركبة ويقبلنى. بالطبع لم أكن أدرك فى ذلك اليوم أنها مسابقة للجمال وكنت أنا الفائز بها، بعد فترة ومنذ ذلك اليوم ورغم أننى كنت أسمع من الآخرين أننى أجمل الأطفال وملك الجمال، لكنى لم أكن أعرف جيدًا ما المقصود بذلك.

لسوء الحظ جاء اليوم الذى أدركت فيه جيدًا غاية ذلك المجلس وتلك المسابقة، وتنبهت لوسامتى، ليتنى بقيت على جهلى وبراءة طفولتى، أو عبرت مرة واحدة إلى حكمة الشيوخ، وفهمت معنى الوجاهة وقصدها. قيل إن الجمال فى الشباب سلاح ذو حدين، وحينًا يكون فى يد مجنون.

كنت أزداد غرورًا واطمئنانًا إلى وسامتى يومًا بعد يوم، وإذا حدث يومًا ما ونسيت فكان الآخرون يذكروننى، كنت أشاهد صورتى فى عيون المعجبين، وأرى أننى أجمل وأرق مما كنت أرى فى عين المرآة، فكنت أفرض لفتنتى حقًا على الآخرين، وأطلب منهم إتاوة.

كنت أدرك أن أبى وأمى يفضلاننى على سائر أبنائهم، وكان الأهل والأصدقاء يجلسوننى أمامهم ويقومون بمزاحى، وفى يوم عيد ميلادى كنت أتلقى الهدايا من كل مكان.

لكن فى المدرسة كان الأطفال يكرهوننى ويضربوننى حيثما وصلت أيديهم، كانوا يقولون: "أنت مداهن ومغرور ومتكبر، ونحن لا نلعب معك". بالطبع كانوا يقولون الصدق، فقد كنت مغرورًا جدًا بجمالى، لكن كثيرًا من هذه العداوة والحقد بسبب الغيرة، لأن البنات كن لا يهتممن بهم فى وجودى.

ذات يوم فى المدرسة حان وقت الرقص والموسيقى. اصطف الأولاد والبنات وقالوا: الاختيار اليوم للبنات، كل بنت ينبغى أن تختار شريكها فى الرقص. فجاءت "هلن" التى كانت أجمل منهن جميعًا ووقفت أمامى.

كان كل الأولاد يحبونها، وكل منهم يتمنى أن يرقص ويلعب معها، لكنهم كانوا يخافون اثنين من التلاميذ كانا أكبر وأقوى منا جميعًا، لهذا كان الأولاد يبتعدون عنها، وكانت الحيلة والوسيلة الوحيدة لانتقامنا هى أن نلتفت حول هذين المنافسين ونرى الدم وهو ينزف من أنفيهما حين يتلاكمان معًا فى المصارعة، كانت "هلن" هى الوحيدة التي تبكي وتحزن لاقتتال هذين المنافسين بينما يسعد ويضحك جميع الأطفال.

كنا نعتقد أن "هلن" تحب أحدهما أكثر منا جميعًا، وأنها لا تبدى رغبتها هذه حتى لا تزداد وطأة العداوة بينهما، لكن حين جاءت ووقفت أمامى واختارتنى، عرفنا أنها لا تحب أيًا منهما. فصفق الجميع فى فرح، وأخذوا ينتقمون من هذين الكاذبين بضحكات طويلة.

رغم أننى لم أدر مطلقًا حول "هلن" ولم أتملقها، ربما بسبب الخجل أو الغرور، فإننى كنت أرى أنها البنت الوحيدة التى تليق بى لجمالها.

وفى أثناء الرقص كان الأطفال يتغامزون ويضحكون ويشيرون إلى النعمة التى أصبحت من نصيبى، لكننى كنت كمن حصل على نصيبه، لم يكن لدى أى خوف أو قلق يقلل من سعادتى من عداوة هذين المنافسين القويين وقتالهما، رغم أن قلبى كان يغوص فى كل مرة كنت أقترب فيها من أحدهما، ويشير لى بإشارة أو حركة بالرأس أو العين.

فقالت "هلن": ليتنى لم أكن قد اخترتك.

فهمت ماذا تقول، لكنى لم أدقق وسألت: لماذا؟ قالت: لأن الخصال الجميلة لا تجتمع كلها فى شخص واحد، وعادة ما يكون الشخص الوسيم جبانًا، يخشى إن تنازع أن يصاب وجهه بخدش.

فغضبتُ قائلاً: ما هذا الهراء الذى تقولين؟! ألا تعرفينى، إن نشبت معركة لسوف ترين أننى لا أقل غيرة وحماسة.

وكأن الفضاء قد امتلأ بهذا الزيف والهراء. ووصل ذلك إلى سمع منافسيَّ، فكنت أرى التهديد الشديد والوعيد فى عينيهما، فارتجفت فى نفسى، وعندما انتهى الرقص، كنت مبللاً بالعرق، فرأيت نفسى وقد وقعت بعد بضع دقائق طريح الأرض من لكمتين اثنتين من منافسيَّ، وقد صرت أضحوكة الأطفال وسخريتهم، و"هلن" تمر جوارى فى احتقار وجزع، وتمدح المنافس المنتصر بنظرة ضاحكة.

إن كنت أستطيع لهربت من ثقب حتى لا يرانى أحد، ولا أعود ثانية إلى تلك المدرسة، لكن دق جرس الفسحة ولم يكن أمامى إلا أن أذهب مع الآخرين إلى الفناء، وأواجه أعدائى الأقوياء الظلمة، ما أكثر ما دمر الخوف العمل البطولى. مشيت بشجاعة حتى إننى نظرت بجرأة وعَرضت لأحدهم وحملقت فيه.

كأنه خجل من أن يتنازع مع أصغر منه أو أنه تعجب حقا من نظراتى الغاضبة وخاف، فذهب ولم يقل شيئًا. مشيت وراءه وقلت بصوت مرتفع وفى غلظة: "ماذا كنت تقصد بهذه النظرات الحادة وحركات الرأس!" فعاد وسدد لى بعض اللكمات الشديدة والتى لو كانت اصطدمت بوجهى لكنت طرحت أرضًا.

أنا لم ألعب الملاكمة مطلقًا، لكننى كنت مشاهدًا جيدًا لهذه اللعبة، عالمًا بفنونها. ربما استخدمت فنا أو أننى انكمشت لا إراديا من الخوف، فمرت تلك اللكمات القوية من فوق رأسى. وبالطبع ساعد فى ذلك أيضًا طول قامة فيليب وقصر قامتى. فهو كان فى السادسة عشرة من عمره بينما كنت أنا في الرابعة عشرة. فى هذا السن يكون الاختلاف بيِّنًا فى الشكل والطول لاختلاف عامين.

كان الأطفال الذين شاهدوا الواقعة يشجعوننى ويضحكون على "فيليب" فشحذنا تشجيع الأطفال وأصابنا بالجنون. وهجمت أنا دفعة واحدة بفعل إثارة المدح، وحتى ترى "هلن" الأسد الجسور الذى اختارته. ونسيت ما بروحى من الألم... تعلق فيليب بى وركلنى بقدم قوية في مؤخرة قدمى حتى إننى استدرت حول نفسى، لكنى احتفظت بتوازنى ومنعت نفسى من الوقوع بكل ما لدى من قوة، وعندما عدت ونظرت فإذا بى أرى أن فيليب قد وقع على ظهره، ولم ينهض ثانية وكأننى أرى حلمًا!

ذهبت وأمسكت بيده كى أوقفه وحتى أكون قد أنهيت اللقاء برجولة. أراد أن ينهض، فلم يسيطر على قدمه اليسرى وأخذ فى البكاء. تعاونًا جميعًا وأوصلناه إلى حجرة رئيس المدرسة، واتضح أن مشط قدمه قد تهشم. فحملوا "فيليب" إلى الطبيب وعادوا بى إلى الفناء مرة أخرى، وكانوا يصيحون فى سعادة.

كنت أنا آنذاك فى دهشة واضطراب ثملاً من التعجب والسعادة. ولا أعرف كيف. أشياء كثيرة كانت تدور فى ذهنى، لكنى فكرت بعدها مرارًا، وفى كل مرة كنت أتحير قائلاً: ألم يكن هؤلاء الأطفال عميانًا، أفلم يروا أن فيليب قد سقط هكذا من فرط قوته ومن خطئه، وأننى إنما وصلت إلى هذه المكانة فقط بحسن الحظ. كنت لا أسمح لصفة الشجاعة أن تنسب إلىَّ! لكن لماذا تركوه وحملونى على الأعناق؟!

مضت سنوات حتى تفتحت عينى وأدركت أن كل من يحمله الناس فوق رءوسهم، يكون بالصدفة أو حسن الحظ وإلا فهناك الكثيرون ممن هم أقوى منه وأشجع.

كان يقين الأطفال يزداد يومًا بعد يوم بأننى بطل. حتى هؤلاء الذين كانوا بالقرب منى وشاهدوا رأى العين أننى لم أقدم فنًا. قد نسجوا هكذا بتصوراتهم وخيالهم وحبًا للأساطير ولصنع التاريخ وأيضًا لمتعة أن تكون القوة مهزومة، كانوا ينسجون القصص من وحى خيالهم وأوهامهم، كانوا يقولون كل ما لديهم حتى إننى وقعت فى الشك أنا أيضًا، وبالتدريج آمنت بأننى أقوى من منافسى!!

ومع هذا، فأحيانًا كان حلقى يقبض من الحزن ويترقرق الدمع بعينى ويضطرب حالى، من فكرة أن فيليب عندما يشفى سيصارعنى مرة أخرى وأفقد هذا الصيت وتلك الشهرة التى تحققت لى.

لحسن الحظ جاء "فيليب" ولم يكن هناك أثر لذلك الغضب والحقد الذى كنت أخشى أن أراه بعينيه، ربما تأثر بالشائعات الكثيرة!

ذات يوم تقدمت بخطوات ثابتة، ونظرة ضاحكة وشجاعة وصافحت "فيليب" عملاً بقانون الرجولة، لكن فى الحقيقة كنت أتقى شره المحتمل وعندما جاء ذكر "هلن" بيننا ورأيت حبه لها، وبنفس السهولة التى يقدمون بها الورود للأصدقاء، قلت: إننى أهدى "هلن" إليك.

، ربما كان ذلك كى يستريح بالى مرة واحدة من حقد فيليب وعداوته فيليب، لكن ذلك لم يكن السبب الوحيد، فأنا لم أر أى إشارة فى وجهه أو كلامه أو حركاته تستدعى ذلك الخوف. السبب الرئيسى كان الاطمئنان والغرور الذى كان لدىَّ بجمالى، كانت صفة البطولة هكذا تبدو فى وجاهتى. حتى إن البنات كن يدرن حولى كالفراشات، كنت على يقين من أننى سأمتلك روضة غناء بدلاً من الزهرة التى قدمتها لـــ"فيليب".

وأردت أن أضيف صفة الرجولة إلى مزاياى الأخرى، حتى تفتتن بى الحسناوات أكثر من ذلك.

الآلام التى نعانيها، حقيقةً كانت أو خيالاً، تكون كل ذرة منها كأنها جبل فى عيوننا ولا تنسى مطلقًا، أما الآلام التى نذيقها نحن للآخرين فإننا نراها صغيرة كالسحب فى السماء، تمضى جميعها

وتنساها. لم أكن أدرك علام يدل ذلك اللون المكفهر والشفاة المرتعشة لـــ"هلن"، وعن أى آلام داخلية تعبر. قلت ذلك وذهبت وتركتها فى مكانها كتمثال من الصخر.

***

أريد أن أعترف فى شرح أحوالى، بكل ظلم اقترفته وأشير إلى كل جرح جرحت به القلب فنزف الدم بسن القلم، واسود وجهى فى عيون القراء بتلك الدماء المراقة.

وأسفاه. إن القاتل لا يستطيع أن يشعر بالآلام التى يعانيها المقتول، وإلا ما قتل إنسان مرة أخرى، عندما يدرك أنه هو نفسه سيكون تحت سيف الجلاد، عندئذ فلن يفعل شيئًا آخر.

لو كنت فقدت الروح فى ذلك اليوم حتى لا أوذى خاطر "هلن" الرقيق، لكن ما الفائدة! فالفرصة التى تضيع من اليد لا يمكن أن تعود أبدًا.

مرت السنوات، ولم ير أحد منا الآخر، حتى وقعت عينى ذات يوم فى الجريدة على صورة امرأة وعرفتها، فاشتريت الجريدة وقرأت تلك السطور القليلة التى كانت أسفل الصورة. أدركت أن صاحبة تلك الصورة قد ألفت كتابًا، موضوعه العشق البرىء الذى لاطائل من ورائه للبنات المراهقات. نظرت جيدًا ورأيت أنها صورة "هلن"، تلك البنت غير الموفقة التى لا تزال تعانى بسبب ظلمى. ربما

صارت كاتبةً بسبب سنوات الألم والعمل، كى تستطيع أن تحفظ الصراخ الذى بصدرها منذ الطفولة، لم أكن مخطئًا، لأننى عرفت بعد ذلك أن الأبطال الرئيسيين للقصة هم أنفسهم "هلن" و"فيليب" و"ويليام".

كنت كالمجرم النادم حين يسمع تفاصيل جريمته من فم القاضى، ويتمنى أن ينتهى هذا العذاب سريعًا بقدر المستطاع، ويصل إلى الإعدام كى يتخلص من عذاب الندم. كنت أقرأ تلك السيرة كل يوم، وأرى أن كل ما لحق بـ"هلن" من حظ عثر وسواد أيام هو بسببى، هو تأثير الحزن الأول الذى أسدلته كالحجاب الأسود على حياتها، فكم من حرقة وظلمة وألم عانته بسبب ذلك الحجاب...

فذهبت كى أنثر تحت قدمها القلب والدين(*).

***

عفوًا. فلو كنت كاتبًا ذا خبرة ما كان ينبغى لى أن أتحدث هنا عن قصة "هلن" بشىء، لأننى لدى وقائع أخرى قبل ذلك الحدث، كان الأجدر بى أن أنقلها لكم.

فى ذلك الوقت الذى كنت أقرأ فيه تلك السيرة فى الجريدة وصببت دموع الندم. كنت أعانى من قيد حادثة مؤلمة أخرى وشديدة، والتى أفقدتنى القدرة والاحتمال.

(*) ربما يريد بالقلب الحب، وبالدين المبادئ والأخلاق... (المترجمة)

حقًا ينبغي عليَّ أن أروى لكم تلك الوقائع، حتى تعلموا ماذا نسجت من سُدى ولُحمة، ومِمَّ كان نواحى وجراح وجدانى، وما سبب بكائى، وما البلايا التى أوقعها الزمان على رأسى. عندئذ ستعرفون إلى أى مدى ساهمت "هلن" فى هذه النهاية العجيبة بالنسبة لى.

لكن لابد لى أن أعود إلى عالم الطفولة، حتى لا أدع تفاصيل فراقى أنا و"هلن" يواريها الظلام، لهذا أحكى لكم مختصرًا عن تلك الفترة.

فقدت "هلن" من يدى، وحلت محلها متعة الغرور والتكبر. لكن هذه المتعة سرعان ما أفسدتها مرارة المنافسة والندم. لو كانت تحلت هى بالوفاء يومين ثلاثة لنفد صبرى، ولكنت ذهبت إليها طالبًا المعذرة، لكنها سرعان ما يئست منى وتعلقت بـــ"فيليب"، رأيت وارتعشت، فقد وقعت شرارة الغيرة بقلبى وتأججت نيرانها. أصبحت متبرمًا من كل البنات الأخريات مرة واحدة لأننى على الرغم من أننى قد فتنتهم جميعًا ببطولتى ووسامتى الواضحة، فكانت البنات يتمَّنين أن يكن موضع اهتمامى، كلما كن يقتربن منى أكثر كان وجه "هلن" المليح الشجى، يتجلى لى أكثر فى معاملتها الرقيقة الهادئة، وتصير مرغوبة أكثر.

عزمت على أن أصارع منافسى وأستعيد منه زهرتى لمرات عديدة، كنت أخاف ألا يساعدنى الحظ هذه المرة وألا يصطدم

المنافس بالأرض بسبب خطئه فأفقد بريق البطولة، ربما لا تصير "هلن" ملكى مرة أخرى، وأكون قد ضحيت بالحب من أجل الشهرة، غافلاً عن أن السمعة والشهرة هما من أجل أن أحصل على المحبوب.

كان هذا هو أول جرح أصبت به القلب، خسارة أن آلام القلب غير قابلة للالتئام لأنها تصادف مشرطًا جديدًا كل يوم.

كنت فى الظاهر أبدى البرود وعدم الاهتمام بـ"هلن"، بينما شعورى بالألم يزداد كل مرة لهذا الغش، فكنت إما أجلس بالمنزل فى صمت وحزن، أو أتصرف بسوء خلق. كانت أمى تعلن عن قلقها لتغير حالى، وتقيس نبضى وتسأل عن حالى. كانت تقول: إذا كنت تريد شيئًا أو لديك حزن فتكلم. أما والدى فعندما أدرك أننى لست مريضًا لم يتورع، ومنع أمى بنظرات آمرة من العطف الزائد بلا مبرر.

ذات ليلة بكيت كثيرًا حتى غلبنى النوم، وفى الحلم رأيت أننى أتصارع مع "فيليب"، وكدت أصطدم بالأرض تقريبًا، إلا أن يدًا أمسكت بى وحفظتنى، كانت يد "هلن"، أردت أن أمسك بها وأقبلها، فذهبت وقالت: لن أتصالح معك مرة أخرى...

عندما أفقت ورأيت أمى وطبيب الأسرة فوق رأسى، عرفت أننى مريض. كانوا يعالجوننى أثر فقدانى للوعى، كان ذلك المرض

هو أفضل دواء لى، فلماذا كانت أمى تجلس فى حجرتى وعلى فراشـــى لساعات تمسك بيدى وتمسح دمعى، وتقول بصوت حزين: "لا تحزن ولا تتكلم، أخشى أن ترتفع درجة حرارتك". لكن ذات يوم – وعند الغروب – كنت بين النوم واليقظة أهذى بكلمات مقتضبة، سمعتها تقول: "تكلم تكلم مرة أخرى. كانت تجففنى بهدوء وأنا كالنافورة الصغيرة التى تتدفق وتذهب، كنت أنسج قصصًا عن "هلن" و"فيليب" وعن عشقى وحرقتى وأنا أبكى، كنت أتكلم بلا توقف. أتذكر جيدًا أننى قلت: إن "هلن" بجمالك أنت، بجمال تلك البنت بائعة الزهور التى تشاهدينها فى تلك اللوحة على مكتب والدى، أحضرى تلك اللوحة هنا وعلقيها على الحائط أمامى. لكن والدى لم يفهم، فهو أقوى من "فيليب"...

طالت فترة نقاهتى وبعد أن شفيت كانت المدرسة قد أغلقت، وفى العطلة لم يتحدث أبى وأمى مطلقًا معى عن مرضى أو عن "فيليب" و"هلن"، وإذا أشرت أنا إلى ذلك كان كل منهما يتظاهر بالنسيان. كلما كانت العطلة تقترب من نهايتها كان قلقى يزداد.. أحيانًا لأننى سأعود إلى المدرسة مرة أخرى وسأرى "هلن" و"فيليب" معًا، فكنت أتحسر قائلاً: لماذا تعالجت؟ ذهبت مرارًا لأتوسل إلى أمى وألتمس منها ألا تدعنى أحزن مرة أخرى إلى هذه الدرجة، وأقول: افعلى شيئًا حتى لا أتألم لرؤية "هلن" و"فيليب" معًا. لكنى كنت فى كل مرة أتذكر أن أمى كانت تحكى لى قصصًا كثيرة مضحكة

عن الأطفال الجبناء، وكانت تسخر منهم. فكان لابد أن أعقد لسان الشكوى، كنت أبدى لأمى عكس ما بداخلى فأعقد حاجبى وأشير بقبضتى وأقول: والله إذا تعرض أحد لى بأذى لأحطمن فاه.

خسارة أننى كنت أتمنى أن تعرف أمى أن كل هذا الكلام عبث وهراء. لحسن الحظ كانت تعرف، لأنها أخذتنى بعد نهاية العطلة إلى مدرسة أخرى. وأودعتنى بها. ولم تقل لماذا؟ ولم أسأل أنا.

وحلت نار محرقة ملازمة لقلبى بدلاً من الخوف والاضطراب لرؤية "هلن" و"فليب"، لكنها لن تخمد أبدًا.

***

كان والدى يعمل مهندسًا، وله شهرة فائقة فى فنون الهندسة. لكن صاحب المهنة إذا جذبه الفن وأفكاره الخلاقة، فكثيرًا ما يبقى خالى الوفاض. عندما كان والدى ينهض، ويذهب إلى حجرة مكتبه كانت أمى وخالتى وأعمامى الذين كانوا يحلون ضيوفًا علينا مرة كل شهر، يجلسون معًا وأسمعهم مرارًا يمدحون أبى لذوقه وإتقانه فى عمله وعلمه، ويتحسرون لسوء حظه.

كان عمرى ستة عشر عامًا عندما رحل أبى إلى الدار الآخرة. ولم يحملنا معه. بعد وفاته وحتى لا أشعر أنا بصعوبة الحياة وقسوتها، ليس فقط لم تسمح أمى بأى تغيير فى وضع البيت، بل إنها أصبحت رحيمة بى أكثر من ذى قبل، وكانت تهيئ لى كل ما أطلب.

كنت أدير شئون المنزل بحرية بدلاً من والدى، فحملت تلك الستارة للبنت بائعة الزهور إلى حجرتى وعلقتها على الحائط المواجه لسريرى، كما وضعت تمثال تلك المرأة العارية، الذى كان على المنضدة الصغيرة بحجرة مكتب والدى فى حجرتى وعلى مكتبى.

لكن المتعة التى كنت أشعر بها من الحرية ومن التمتع بكنوز الجمال الأخرى لوالدى كانت بلا نظير، كان كل أصدقاء الأسرة ومعارفها حزانى لوفاته ويتحسرون لرحيله، فكل من رأى ذلك القوام الممشوق، وتلك القيافة النجيبة والشعر الأبيض والأسود، وتلك المعاملة المحترمة المؤدبة مرة واحدة، كان يحبه.

كان يرتدى الملابس الأنيقة حتى إنهم جميعًا أخذوا منه عنوان الترزى الذى كان يحيك له ملابسه. ابتسامته الصغيرة هى وسيلته للتعبير عن الرضا والسعادة، والتى تتحدث أكثر من ألف شكر وثناء. وعندما يغضب كان لا يقول شيئًا، لكنه يطأطئ الرأس لأسفل. كانت له إشارات ونظرات وعبارات تناسب كل المواقف، وكأنه أعدها قبل ذلك. لم أسمع صوته عاليًا قط، ولم أره مطلقًا يتشاجر ويتناقش مع أمى.

بعد عام من وفاة والدى، جلست وراء مكتبه حتى تكون الكتب فى متناول يدى، كانت أمى أحيانًا تقف وتنظر إلىَّ أو تجلس أمامى تشاهدنى من أعلى الكتاب الذى بين يدىَّ وأنا أذاكر. كنت أعرف أنها

تبحث فيَّ عن والدى، خاصةً وأننى كنت أرى مشابهتى لوالدى تزداد كل يوم. فضلاً عن أننى كنت أشبه والدى من حيث القوام الممشوق وطول القامة وملامح الوجه. كما كانت حركاتى ومعاملتى تزداد تشابهًا به كل يوم.

ذات يوم من أيام "الأحد" كان السيد "توماس" قد جاء إلى منزلنا مع ابنته "مادلن"، فقال لأمى: لو نثرتم بعض البياض على رأس "ويليام" فإنه سيأخذ شكل أبيه جدا. فتأوهت أمى وقالت بابتسامة حزينة: إن الله يحبنى، فإذا كان أخذ منى "ألفونس"، فقد أعطانى "ويليام". هو كوالده طيب ورحيم، وعاشق للجمال مثله لكن... خسارة...

تعكر صفو خاطرها وذبلت وردة وجهها، فاضطربت وقلت: تكلمى يا أمى الحبيبة. لماذا تتحسرين؟ فلن تكون هناك مشكلة لا أستطيع حلها!

رأيت أن نظرة خاصة عبرت بينها وبين "توماس"، لكنها لم ترد على سؤالى، كنت أعرف السيد "توماس"، فقد جاء إلى منزلنا مرات عديدة، وباع لوالدى اللوحة المرسومة وأشياء فنية أخرى.

كان له حديث ممتع ويتحدث بدفء وعذوبة. وكان والدى يقول: إنه لم ير إلى اليوم فنانًا وصل فى معرفة الفن إلى درجة هذا السمسار. بعد وفاة والدى لم يأت قط إلى منزلنا، وكان هذا نفسه

دليلاً على أنه ليس من أصدقاء الأسرة، بل كان يأتى لبيع اللوحات أو أشياء أخرى.

مر بخيالى أنه ربما تكون آهة أمى وحسرتها لهذا السبب، وهو أنها لم تستطع أن تشترى جديدًا تضيفه إلى كنوز الجمال التى لدينا، وقد حزنت وخجلت لأن "توماس" سوف يعود يائسًا، قلت: أمى الحبيبة، لا أعتقد أننا نحتاج فعلاً إلى تحف جديدة مع كل هذه الآثار الفنية التى توجد بمنزلنا. فطأطأت الرأس لأسفل ولم تنطق، وأخذ "توماس" يحرك الأصابع على المنضدة. ومـــــلأت "مادلن" خاطرى بالشوق والحسرة بنظرة هاربة. شوقى لأننى لم أكن قد رأيت عينين بذلك الجمال والصدق، وحسرتى أنه لماذا لم تستقر تلك العيون الجذابة على الوجه الذى يليق بها!

قال "توماس": أنا أتذكر تلك اللوحة جيدًا، لكن ينبغى أن أراها مرةً أخرى.

فنهضت أمى وسارت نحو حجرة مكتب والدى، ومشينا وراءها. عندما دخلنا، وقفت "مادلن" ووالدها أمام الحائط الشمالى للحجرة لمشاهدة اللوحة. وكأن "مادلن" قد استيقظت من النوم فجأة لرؤية تلك اللوحة الفنية، فخرجت عن ذلك البرود والصمت اللذين كانت تتمتع بهما ورجعت إلى الخلف خطوتين ثلاثًا، وقالت بحماس وشغف: "إن هذه اللوحة من عمل "ألفرد" الرسام، وكالفاتح الذى

يجعل من جهنم روضة غناء بحسن بيانه، هذا الرسام كان يبدع كنزًا من كل دمار، ويهب الروح لكل قلب ميت. يرسم عالمًا جديرًا بالمشاهدة فى لوحة فنية تجعل المشاهد لا يحتاج إلى الفرجة والرؤية. لو تنصتون لكنتم تستمعون إلى شرح عشق أهل الدنيا، من ناى هذا الراعى، وتشاهدون محبوب الدنيا ومعشوقها يناديكم من خلف أستار سماء هذه اللوحة. وكأن الأشجار قد فتحت أجنحتها وتريد أن تحلق فى السماء، وكأن البحر يرتعش سرورًا.

بعين هذا الفنان، كل جماد ونبات يصبح ذا روح وحياة، فكل ما فى هذه اللوحة هم عازفو لحن واحد. لحن العشق والجمال. ويبدو واضحًا من الصورة واللحن، القلب الرحيم لهذا الراعى وعشقه المحرق، كما تشاهدون مشاركة الأغنام فى حالهم ونظراتهم، وتسمعون لحن النسيم من السحب المضطربة والأوراق المتراقصة. كأن هذا الراعى والأرض والسماء والشجر والماء والأغنام، كل هؤلاء أعضاء لجسد واحد. فلا تشاهدون حدًّا أو خطًّا فاصلاً بينهم، الجميع يشاركون بعضهم بعضًا فى المشاعر والأنين. واحسرتاه أن يرسم لنا هذا الرسام العالمى بهذا الشكل، يا له من مكان جميل للمعيشة، فيبعث الجمال والخير والسعادة فى فكرنا وكياننا، كالماء الزلال فى فم العطشان، لم يكن رسمًا، بل كان عزفًا وحديثًا عذبًا...".

كانت "مادلن" تتحدث وكنت أنا أشاهد حتى كبرت اللوحة المرسومة وتلاشت هى، كانت تضفى عليها كل ما فى الطبيعة من لطف وجمال، وصارت قامتها طويلة هيفاء ورشيقة كأنها السرو. كانت "مادلن" تتحدث وأنا أستمع إلى لحن موسيقى مثير، كأن الراعى والقطيع والسهل والتل كل هؤلاء يعزفون لحنًا من أجلى، كنت لم أستمع قط إلى صوت بهذا اللطف من ثغر أى حسناء.

فجأة أفاقنى صوت خشن فاضطرب هذا الوجد وهذا الحال، حين نَـَـهَرَ "توماس" ابنته قائلاً: لماذا كل هذا المبالغة؟! "ألفرد" رسام جيد، لكنه عندما رسم هذه اللوحة كان لا يزال شابًّا غير مخضرم، فالرسام له لوحات جميلة ورديئة، هذه اللوحة إن لم تكن من لوحاته الجيدة فهى متوسطة، وأنا اشتريتها بمائتين وخمسين دولارًا، وبعتها للمرحوم "ألفونس" بربح عشرة دولارات، وأنا لا أطلب الآن أكثر من هذا.

فمسحت أمى يديها بعضها البعض وقالت لنفسها: مائتين وستين دولارًا! وسألتُ أمى بحيرة واضطراب: أتريدين أن تبيعى اللوحة؟

فقالت بلهجة جريحة: للأسف فلا حيلة لنا. فاضطربت وقلت: إذا كان الأمر هكذا فلن أذهب إلى المدرسة من الغد وسوف أعمل...

لكن "توماس" لم يتوان وأنزل اللوحة من على الحائط. وسمعته وهو يمشي سعيدًا يقول: أنا أحب عيون "مادلن" التى ترى محاسنى، وليست عينيك العمياء...

***

حمل الأب وابنته اللوحة، وذهبت أنا إلى حجرتى، فكانت كالجعبة المغلقة من كل النواحى، وكانت محتويات عقلى قد تناثرت وتبعثرت. غرقت فى خضم الحيرة والدهشة، لتصور أننا قد نضطر لبيع أدواتنا المنزلية، لأنها كانت المرة الأولى التى أرى فيها شبح الحاجة المخيف وجهًا لوجه. فجأة مرت ببالى قصة حياة أمى المؤلمة كالسيخ المنصهر، فهى تحملت عبء الحياة بعد وفاة الزوج وحدها وبلا معين حتى الآن. وبدأ الضجر يتسلل إلى حياتى، وتساءلت لماذا لم أفكر إلى الآن بهذا الأمر مطلقًا. كنت كالحيوان الأليف بلا قيد أو تفكير!

كان لحن حديث "مادلن" فى أذنى يثير الاضطراب الممتزج بالأحزان المحرقة والأفكار المحزنة؛ كنت أتخيل أننى أسمع تلك النغمة التى تصدر من لحن الفلك بأذن قلبى، وقد وجدت تلك النقطة الأخيرة والتى طالما بحثت عنها فى الجمال. تصورت للحظة أننى مفتون وأسير "مادلن"، لكن الماء لم يلق على نار القلب بعد. تعكر نبع سعادتى برماد الخداع، كانت حسرتى على أن ذلك القلب الرقيق

المحبوب، ذلك الذهن الوقاد، وذلك الفهم الفياض، وتلك العيون العاشقة للجمال، كل ذلك كان لا يتناسب وذلك الوجه والقوام. وصرخت قائلاً: يا إلهى، ألا يمكن أن تفصل هذه الروح وهذا الجسم الجميل عن بعضهما بعضًا؟ ألا يمكن أن تعطيهم معًا لأحد! فتتجلى عظمتك فيه؟!

***

دق جرس طعام العشاء. فهربت من الأوهام المضطربة ونزلت إلى حجرة الطعام، لكن تلك الأوهام كانت قد وصلت إليها أسرع منى وجلست أمامى. كنت كلما وجدت كلمة لأتحدث كانت تضيع فى دائرة الأوهام، فلا ترد على لسانى. كانت أمى أيضًا صامتة، كنا نطأطئ الرأس لأسفل حتى لا ينظر أحدنا للآخر.

وفى النهاية رفعت أمى الرأس وقالت: لماذا تفكر كل هذا! كانت لهجتها قد تغيرت حتى إن فمى ظل مفتوحًا من الدهشة. نظرت فرأيت أن عينها وشكلها قد تغيرا أيضًا، رأيتها تحاول أن تخفى عنى وراء ذلك الوجه الضاحك وابتسامة الأمومة شيطان الحزن والغضب.

فقلت: أفكر فى أنكِ لماذا لم تدعينى أشاركك أحزانك كل هذه المدة، لماذا جعلتِنى لا أعرف شيئًا عن قسوة حياتى!

ولم تجب، وعدنا إلى الصمت مرة أخرى. انتهى وقت العشاء، فذهبت وأحضرت القهوة وقالت: اجلس نتحدث معًا إذا كان ممكنًا، ولا تذاكر الليلة.

فقلت: بشرط أن تعتبرى أننى جدير بالمشورة وكتمان السر. قالت: إذا كنت لم أدخلك إلى الآن فى مشكلات الحياة فإن ذلك لم يكن لأنك غير جدير بالمشورة، لكن ذلك لأننى كنت أتمنى ألا أشغل عقلك وذهنك عن الدرس والمدرسة، وقد استطعت أن أتحمل هذا العبء إلى الآن وحدى، أما الليلة فلابد أن أضع أمامك الحقيقة المفزعة المُرة، أى أننى ينبغى أن أفتح نافذة الحياة أمامك، وأتوقع منك ألا تخشى أى صعوبة أو ألم، وتهيئ نفسك لمواجهة صراع الحياة بوجه طلق ورجولة، رغم أنى كنت أتمنى ألا تعرف شيئًا عن بيع اللوحة – إن أمكن – حتى لا تدخل إلى هذه الحلبة سريعًا...

ترقرق الدمع بعينها، وقبض حلقها، فنهضت حتى تهدأ، ثم ذهبت وأحضرت لى تفاحة. شغلت أنا نفسى بنزع قشرتها وتناولها حتى هدأت عن اضطرابها وجلست بجانبى. بعد لحظة من التأمل قالت: ابنى العزيز، لم يكن لدىَّ من هو أجدر وأكثر تحملاً من والدك، لكن كان به عيب واحد كبير يمحو عنه هذه الصفات دائمًا، هو عشقه للقمار.

فقفزت من مكانى وصرخت قائلاً: ماذا تقولين؟ والدى والقمار!

فحركت الرأس فى حسرة وقالت: نعم القمار، لكنه ليس القمار الذى يلعبونه بالورق، قمار الأعمال الجديدة، قمار لعبة الشركات. وحينما كان يخسر ثم يحصل على الأموال، كان يتدارك الخسارة السابقة، فكان "أهريمن" ذلك الشيطان الذى كانت مهمته خراب منزلنا يلقى بفكرة جديدة وعجيبة فى رأسه، ولا يدعه يستريح ما دام لم ينفذ تلك الفكرة. ولم يخسر ولم ينفق كل ما لديه، وتستطيع أن تقرأ مستندات هذه الأعمال إذا أردت يومًا ما، إذا سنحت الفرصة فهى فى ذلك الصندوق. تقرأ وتعرف سبب فقرنا ومعاناتنا الحالية .

لو لم يكن بوالدك المسكين هذا العيب، أو لو كان الحظ حالفه على حد قوله هو نفسه، لما كنت أنا الآن مضطرةً لأن أخدش قلبك البسيط بهذه الأسرار المؤلمة.

لكن أتمنى ألا تقع فى الخطأ لهذه المعرفة، أو تلوث كيان والدك الرقيق ولو فى الخيال بأقل ذنب لا قدر الله، فإذا كان الآخرون قد شاهدوا قامة والدك العالية، والقوام الممشوق والشكل الجذاب، وكانوا يمدحون أدبه ووسامته، فأنا كنت عاشقة وإلهة حقًا لقلبه الطاهر ومزاياه، ورغم المصاعب التى كنت أراها، فقد كنت أحنى

الرأس وأسلم أمام كل هذه الشجاعة والإقدام والعفة التى كان يتمتع بها.

ولحسن الحظ فإن كل خصال والدك الجميلة توجد فيك، لكنى أخشى أن تكون لديك تلك الصفات الأخرى، والتى كانت سببًا لآلامه. مثلاً كان يعشق الآثار الفنية لدرجة أنه يجلس حزينًا، لأنه لا يمتلك لوحة "فلان"، ويحزن لأنه رأى تمثالاً ولم يستطع أن يحصل عليه، وأرى أنك تعشق الجمال أكثر من اللازم كوالدك...

قلت: لو لم يكن والدى عابدًا للجمال، ما كانت أمى بهذا الجمال. فضحكت وقالت: يعلم الله أننى كنت أخجل دائمًا من رشاقتى الجذابة، وكنت أعرف أن والدك الفنان الرزين غير راضٍ عن جمالى.

قلت: إن عدم مدح جمالك هو ظلم. قالت: بالطبع أنا لم أسمع من والدك مطلقًا كلمة تؤذينى، لكنى كنت أقرأ حال قلبه وآماله أكثر منه هو نفسه. وأنت النموذج الحى لوالدك، ألم أر العيوب التى تأخذها على كل بنت!

قلت: حقا أمى الحبيبة. كأننى اكتشفت هذه الليلة فجأةً أمرًا كنت أجهله، أى أننى كنت آخذ تلك العيوب التى تنقص البنات، وفى الحقيقة لم يكن لدىَّ أى اعتراض على شكلهن وتكوينهن، لكنى كنت

أرى ما بأرواحهن وأذواقهن وقلوبهن من نقص، وأضعه على عاتق ظاهرهن.

فضحكت وقالت: لكنى لم أر بنتًا قط فتنتك بدرجة تلك البنت، خاصةً عندما كانت تتحدث.

فغلى رأسى وصرخت قائلاً: ماذا تقولين! أنا.. تفتننى بنت بذلك القبح! أليس كل شيء ممكنًا؟!

ولملمت ضحكة من فمها، وقالت: ربما تكون هذه هى المرة الأولى التى أسمعك تكذب فيها. صمتنا، لا أعرف هل كان ذلك الحزن لأننى قد فتنت بـ"مادلن" حقًا، أو بسبب الخجل لأننى كذبت، وسال دمعى وتوسلت إلى أمى، قبلت يدها وطلبت العفو، فقالت: لا تخف عنى شيئًا فى أى وقت. احك لى كل ما يدور بفكرك، المشكلة التى يحكيها الصديق لصديقه تغدو سهلةً. كان والدك أيضًا يحكى لى عن كل مشكلة تعترضه، ويقول: أنا ليس لدى وقت للحزن، احزنى أنت لى. وما أكثر المشكلات الكبيرة التى كنا نجد لها حلاً معًا، والأحزان الشديدة كانت تهرب عندما ترى أننا نتحد فى الفكر...

قلت: أمى الحبيبة، لقد صدق حدسك، فلم تأسرنى بنت مثل "مادلن" مطلقًا، أى أننى لم أكن قد رأيت روحًا بهذا الجمال فى أى بنت.

قالت: أنت عزيز لدىّ بمنزلة أبى وزوجى، لأننى أرى فيك خلاصة مميزات الاثنين معًا وأحوالهما وشكلهما، لقد ورثت هذا الحب الشديد للجمال الذى لديك شكلاً ومعنى عن والدك. كانت تقول لى مرات عديدة إنه إذا لم يكن هذا الطبع الظريف والقلب الحساس واللسان العذب، ما كنت أغفر لك النواقص التى لديك فى الجمال، أو لو أنك بهذه الوسامة ولا تملك روحًا جميلة ما صادفت هوى قلبى حقًا، لقد كان والدك مثلك أيضًا يحب المصاعب، كانت مئات البنات تتمناه، أما هو فكان لا يرى محبوبته بينهن حتى التقينا ذات يوم فى القطار، وصدفة تحدثت أمهاتنا معًا، وتعارفنا وكنا قد جلسنا أمام بعضنا بعضًا وكنا نتحدث معًا. كنت أنا أنظر من النافذة كثيرًا، فسأل والدك: على أى شيء تنظرين؟! قلت: أريد أن أرى كل ما هو جدير بالمشاهدة. لكننا كنا نسير بسرعة حتى إننى لم أكن أستطيع ذلك.

يالها من ذكرى جميلة، بعد أن صمتنا لحظة فكرت وقلت: إن هذه الدنيا متحف كبير، وكل إنسان يجد كل ما يريد فى هذا المتحف، ونحن فى النهاية كراكبى القطار نمضى هكذا سريعًا أمام الأشياء الجميلة، فلا نتمتع بكل هذا الجمال والنعمة.

علقت فكرتى الصغيرة فى قلب "ألفونس" كالخطاف ولم تخرج منه بعد ذلك، وتزوجنا وعشنا حتى اليوم الأخير فى سعادة وسرور.

قلت: إذن فما العيب فى أن أطلب "مادلن" للزواج؟! فضحكت وقالت: أخاف من طبيعتك المحبة للجمال التى ورثتها عن أبيك، فإذا كان والدك أعجب بى، فلم يكن ذلك لأننى أتمتع بطبع ظريف ولسان عذب فقط، فقد كنت جميلة أيضًا، لكن "مادلن" ليست جميلة، وأخشى أن تندم على هذا الاختيار يومًا ما، ومع هذا فإذا فكرت ولم تغير رأيك فلن يكون لى رأى آخر. لكن لحسن الحظ فالموضوع الذى أتمنى أن أناقشه معك هذه الليلة هو أن الفرق بين العشق والسعادة شاسع. بالطبع كان التقصير منى ومن أبيك لأننا لم نتوقع، وإلا فلماذا ينبغى علىَّ اليوم أن أتألم وأعانى وأشركك معى مضطرة...؟

ثم صمتت وغاصت فى التفكير، وكأنها شعرت بالخجل. قلت: لقد أدركت حقيقة بيع اللوحة، وأتمنى أن تعرفى أننى مستعد للعمل من الغد، وسوف أقبل أى عمل مهما كان شاقًا.

فتأوهت وقالت: لو كنت أتممت تعليمك ما كنت أتكلم، لكنك لم تتم بعد تعليمك العالى ولست صاحب أى مهنة. والدك كان لا يتمنى أن تصبح مهندسًا، كان يعتقد أن سوء حظه سيلاحقك أنت أيضًا. كان محقًا، فقد ورثت عنه الكثير من بُعد نظر وكرم، وما أكثر ما تكون هذه الصفات باعثة على سوء حظك أنت أيضًا. لهذا كان القرار بأن تدرس الطب، لكن للأسف أرى أنك تحمل كل صفات جدك لأمك، ولن تجنى من وراء هذه المهنة إلا متاعب الدراسة. فذلك المسكين (جدك) عندما كان يعالج مريضًا من مرض شديد، كان

لاينام، ودائمًا يسأل عن حاله بالتليفون دون أن يطلب منه ثمن عيادته له، وإذا توفى المريض كان يتألم وكأنه هو المسئول. وكان مثلك أنت أيضًا يرى أن طائر المنزل إذا ذبحوه لا يأكله، وكان يحرص دائمًا ألا يسحق نملة تحت قدمه .فلم يكن فقط لا يأخذ من المريض نقودًا بل كان يعطيه معونة أيضًا، ولهذا لم يترك لنا شيئًا يذكر عندما رحل عن الحياة. لكن لحسن الحظ كنت أنا بنتًا فتزوجت، وكل ما تبقى يكفى لمعاش أمى، لكنك ولد ولم تتم تعليمك. صحيح.. إننى كلما أفكر أرى أن قلبًا بهذه الرقة والنعومة التى لديك لن يوفق فى مهنة الطب.

أنت ينبغى أن تكون شاعرًا أو كاتبًا أو موسيقيًّا لما لديك من طبع لطيف ملائكى، إن كنا نحن أبًا وأمًّا صالحين، لكان ينبغى علينا أن نهيئ لك أسباب المعيشة طوال العمر، حتى تعيش كما تتمنى، لأنك لن تستطيع بهذه المشاعر أن تتمتع بالفن أيضًا، بل ينبغى أن يكون الفن بالنسبة لك مجرد وسيلة للتسلية وشغل الوقت. لم يتوصل عقلى إلى حل، وعليك أن تدرك أنك طفل لديك حرفة العشق.

قلت: ما دمتِ أنتِ راضية عنى ومطمئنة البال من ناحيتى فسوف يكون ذلك بالنسبة لى هو الشعر والموسيقى. اسمحى لى من الغد أن أعمل ولو بائعًا للجرائد، فأنا لا أريد التعليم العالى، فلابد للقلب أن يسعد، وزينة العقل والذكاء ليست هى الوسيلة الوحيدة للسعادة.

نظرت بأمومة وقالت: لقد اتخذت قرارًا ولن أتردد فى تنفيذه، وهو أن تدرس وتحصل على الشهادة، وأخيرًا فإن اختيار فرع الدراسة بيدك أنت، لقد أنفقت كل ما لدى من أموال خلال فترة السنوات الأربع التى توفى فيها والدك، ولابد لى أن أعمل فى مصنع للخياطة من الأسبوع القادم. ولأننى لست ماهرة فى الخياطة فلن أتقاضى أجرًا مجزيًا.

لحسن الحظ فإن اللوحات والتماثيل والآثار الفنية التى نبيعها تساعدنا فى إتمام تعليمك، والشيء الوحيد الذى يؤلمنى هو أنك عاشق للجمال والفن كأبيك، وتحب هذه الآثار، وأخشى أن تتألم لعدم وجودها. قلت: أنت أم ملائكية الطبع، وأنت عندى أجمل لوحة، ولن أحتاج إلى الأعمال الفنية العظيمة ما دمتُ أراكِ.

وقبض حلقى من السعادة والحب وفاضت عينى بالدموع، فنهضت وقبّلت أمى بحرارة أكثر من كل ليلة وذهبت إلى حجرتى.

* * *

ذهبت كى أنام وأضع كل هذه الأوهام التى حلت بى فجأة على الوسادة، أغلقت العين حتى لا أشعر بالخجل من أمى، غطيت أذنى حتى لا أسمع حديث "مادلن". لكنى كنت مهما ألجأ إلى النوم أزداد يقظة واضطرابًا. دب بروحى حريق، استعرضت كل ما كنت قد اقترفت من ذنوب منذ الطفولة، وكل ما جرحت به القلب من جهل

وغرور، تلك النظرة المحرقة لـ"مادلن" عندما أهديتها باقة ورد فى ذلك اليوم، وحزنى على أننى كنت أعيش سعيدًا بلا قيود فى الوقت الذى تعانى فيه أمى وحدها، وحزنى وندمى أن "مادلن" ليست جميلة، أو لماذا لم تكن إحدى الفتيات الجميلات اللائى يطلبن ودى، لديها روح "مادلن"، فكان كل ذلك يؤلمنى.

كانت هذه هى المرة الأولى التى تهاجمنى فيها خيول الحزن فى ليلة دامية، وأول ألم أعانيه فى جوف الليل بسبب جلاد الزمان، فذهبت حتى أوقظ أمى وألقى بنفسى بين أحضانها، فالشخص الذى لديه أم لا يخاف من الدنيا.

وقفت وشاهدت القمر من النافذة، ربما تكون أمى فى سماء قلقى، فكان النسيم العليل يجفف دمعى بنعومة يد الأم. وكانت أوراق الشجر وأغصانه تشبه الورود والبراعم التى تهتز على ثوب أمى، وكأنها كانت تهتز لمواساتى. قلت: يا أمى، أليس الجمال والقبح شيئًا واحدًا أمام الطبيعة؟ ألا ينبغى أن تعانى الجميلات أيضًا! فأنت بكل هذا الجمال واللطف، وأنا بكل هذه الوسامة والخير، لماذا ينبغى علينا أن نعانى ونتألم!؟ وما الفرق إذن بيننا وبين الآخرين؟ أمى الحبيبة. سامحينى، فقد شغل بالى حديث "مادلن"، ولم يدعنى أفكر فيكِ وأحزن، وكأن الأحزان كل منها علاج الآخر.

أمى الحبيبة، هل تستطيعين أن تمنحينى الشفاء من مرض عبادة الجمال هذا؟ أو هل تستطيعين أن تجعلى "مادلن" جميلة فى نظرى؟!...

***

بكيت ليلاً وشكوت كثيرًا، فى هذا الاضطراب ناجيت أمى وناديتها. وفى الصباح عندما استيقظت، تعجبت لأننى لست مضطربًا ومتألمًا كما كنت ليلة أمس، لماذا لا تؤلمنى تلك الأفكار المحزنة كليلة أمس!؟ لعل تلك الأحزان المهلكة فرت هاربة من النور.

عندما وقفت أمام المرآة زينت نفسى، بدا لى حل للغز "مادلن". رأيت أنه من المؤسف أن يسمح قوام بهذا الشكل وهذه الوسامة بأن يفكر فى بنت غير جميلة، حتى وإن كانت فى ذكاء ولباقة تلميذ سقراط. ولكن بدت لى مشكلات الحياة أكثر ملاءمة وسهولة، فقلت لنفسى: سأستعيد الآثار الفنية واللوحات مرة أخرى، وسوف أتدارك متاعب أمى عندما أنهى دراستى، كذلك أهيئ لها ما تتمنى من وسائل السير والسياحة حول العالم، وأشترى لها مزرعة صغيرة قرب المدينة حتى تشغل بقية عمرها مع الورود والعشب حسب رغبتها.

أرحت ضميرى بهذا الكلام، وقبل الذهاب إلى المدرسة ذهبت إلى حجرة مكتب والدى كى آخذ كتابًا من المكتبة. لفت نظرى

موضع لوحة الراعى الخالى، ووقفت لا إراديًا، واستعدت بذاكرتى ذلك الوصف الذى كانت "مادلن" قد وصفتها به، وفجأة تنبهت إلى أننا قد فقدنا جوهرة ثمينة أو روضة من الجنة قد ضاعت منا!

أخذت أفكر لماذا إذن لم أكن أرى هذا الوصف وذلك الحال فى تلك اللوحة حتى الآن! وتمنيت لو أن "مادلن" كانت تقف معى أمام ساحات الورود والغابات والأنهار والجبال وكل ما فى الطبيعة وفى المدن والمتاحف، أمام الآثار الفنية الرائعة فتفتح عينى وعقلى على رؤية الجمال وفهمه.

ذهبت إلى المدرسة لكنى لم يكن لدىَّ أى طاقة للدراسة، كنت أتمنى أن ينتهى اليوم سريعًا ويحين وقت لعب التنس، لم تكن أمنيتى اللعب فى حد ذاته، لكنى أردت أن أجد فرصة وأحث "أليس" على الحديث. كانت "أليس" أجمل من كل مثيلاتها فى النادى، ورغم أنها كانت تتدلل على كل الشباب فقد كانت تحبنى أكثر منهم جميعًا.

"أليس" كانت هى البدر الكامل الذى لم يدع لقلبى حجة يتذرع بها، حديثها مرح وساحر وعذب، كما كانت ماهرة فى لعبة التنس، لكن مع كل ذلك لم تكن تأسرنى. بعد أن سمعت وصف تلك اللوحة من "مادلن"، عرفت أننى كنت أبحث عن المشاعر والروح الرقيقة أيضًا فى "أليس" حتى أستسلم لها مرة واحدة.

في ذلك اليوم كنت أتمنى أن أحث "أليس" على الكلام، فأسمع منها البقية التي كنت قد سمعت بعضها من "مادلن" عن تلك الموسيقى التي تهذب الخيال، وبعد أن لعبنا نصف ساعة قلت: أنا اليوم متعب فتعالي نجلس ونتحدث. قالت: إذن دعني ألعب مع شخص آخر.

حاولت إرضاءها بكل وسيلة، وذهبنا بجوار شاطئ البحيرة وجلسنا تحت شجرة على الكرسي، قالت: لماذا لا تتحدث؟ قلت: أشاهد صورة السحب والأشجار والورود التي تسقط على الماء. قالت: لم تكتمل بعد أشعارك، ماذا ترى أيضًا؟ قلت: كأنني أرى كل هذا في عينيك الزرقاوين.

بعد ضحكة طويلة عقدت حاجبيها وقالت: خسارة عليك، أتنسج الخيال والشعر!؟ إن قلبي يحترق على الرجال ممن يشغلون العقل والعيون والآذان بأشياء واهية بدلاً من التفكير، هم في رأيي مرضى لا يريدون أن يعالجوا أنفسهم.

قلت: افترضي أن هذه البحيرة لوحة فنية، تحدثي أنت عنها، ماذا تشاهدين في هذه اللوحة؟ قالت: أنا أرى أنها ليست لوحة فنية، فهي صورة السماء والأشجار وقد وقعت في الماء.

فقلت في نفسي: أنا أيضًا أرى أنك تمثال جميل بلا روح، مع الفارق، فالتمثال لا يتحدث، ولا يجعل المشاهد ييأس من نفسه.

ساد الصمت بيننا لحظات، ثم قالت: كم ورثت عن والدك؟

قلت: لا شيء. فضحكت وقالت: عرفت، ماذا ينبغي أن تفعل، إن الله لم يمنح كل المزايا الجميلة لشخص واحد، فالعقل والمال والجمال لا يجتمعون، تعالى نلعب. قلت: اذهبِى أنت فأنا قد تعبت.

ذهبت هي وجاء خيال "مادلن" وجلس مكانها، فأغمضت نصف عيني وأخذت أستمع بكل حواسي، فكنت أستمع إلى وصف "مادلن" للبحيرة كاللحن الجميل الذي يأتي بمنظر بديع في كل جملة، وكانت تظهر لي الجمال حتى عجز وجداني عن ضبط ذلك.

***

كنت أتحدث مع أمي على السفرة، قلت: لقد قررت أن أدرس مهنة والدي نفسها، وأدرس الهندسة. وإذا كانت لديه الصفات التي تسببت في ضرره ومتاعبه، فأنا سأتخلص من تلك الصفات. علاوة على أنه لا ينبغي أن ننسى نصيب الحظ في الأمور، لو أن نظرة عطوفة بعين الحظ صادفت حياتنا، ما كنا عبرنا اليوم عن رجولة والدي وبُعد نظره إلى ما لا نهاية. لماذا لا يساعدني الحظ، فليس معلومًا إن كان يضمر لي العداوة أنا أيضًا كوالدي.

قالت: أنا أوافقك على قرارك، وينبغي أن أقول لك حتى يطمئن بالك، إنني أنا ووالدك لم يكن لدينا أي خوف من عداوة الحظ لنا وكراهيته، بل كنا نجد سعادتنا في كل هزيمة جديدة تواجهنا أكثر من ذي قبل، بأن نقترب من بعضنا بعضًا أكثر وأكثر، ونصبح أكثر

عطفًا. إن لم يكن والدك عاشقًا للجمال ولا يعبد التحف الفنية ما كنت أحزن مطلقًا، فأنا كنت أتألم جدا حينما كنا نرى تمثالاً أو عملاً فنيًا آخر ويجذبه، لكنه لا يملكِ النقود لشرائه.

قلت: أنا متأكد أن والدى سرعان ما كان ينسى كل رغبة وعشق؟ لأنه مع زوجة ورفيقة مثلك وكان يمتلك أجمل لوحة فنية وهى وجودك. قالت: خسارة، فالقلب العابد للجمال لا يقنع بسهولة. قلت: لكنى إذا وجدت زوجة تتمتع بروحك وجمالك، فإننى أترك كل ما فى الدنيا من فن وجمال للآخرين.

فابتسمت وقالت: أفهم ما تقول، من الأمس عندما رأيت "مادلن" بذلك الشكل الجميل والفكر الثاقب، وسمعت منها ذلك الوصف الفنى الذى نضج بأحاسيس تلك البنت الرقيقة، وأنت تتمنى أن تلحق ذلك الوقار ورقة المشاعر هذه بـــ"أليس"، أو تكون "مادلن" بجمال "أليس".

فقلت: على فرض أن "مادلن" كانت فى جمال "أليس" فما الفائدة وهى لا تحبنى!؟

عندما حكيت لها عن تفاصيل الحوار الذى دار بينى وبين "أليس" بجوار البحيرة أخذت تفكر، وعندما نظرت إليها رأيت أن غشاء رقيقًا من الحزن قد غطى وجهها. قالت: خسارة، لو أن لدينا ثروة لكنت تنظم الشعر أو تعزف الموسيقى، ربما كنت نابغة لأنك

تعيش ككبار الفنانين بقلبك، أى أنك تحمل كل ما ترى وتسمع، وكل ما تطلبه منك الطبيعة، إلى مرسم قلبك وتجعله شعرًا. هذا هو شرط الفن. لا أعرف هل أتحمل الذنب أنا ووالدك أم نضعه على عاتق الحظ على حد قولك، لأنه دفع بك إلى عمل لا تحبه.

قلت: لا داعى للقلق، فسوف أنتقم من الدنيا بقوة الإرادة، وأتدارك عدم توفيقك. قالت: إذا كنت تسمع لى، فاشتغل بالموسيقى والغناء أيضًا، خسارة ألا يغرد صوتك، فهو علاوة على كونه غناء، هو وسيلة ضرورية للعزاء، فالأنين الذى يصدر عن قلب رقيق، ويحيا بالجمال والأهواء هو الذى يريح نفسك.

قلت: واضح أنه لا أمل لديك فى أن أجد فى النهاية زوجة بجمال خَلقك وخُلقك! قالت: ما أكثر ما يحدث ذلك، لكن العشق قمار، لا يستطيع أى شخص أن يركن إليه.

فغضبت وسألتُ: لماذا يكون اختيار الزوج والزوجة قمارًا؟! ولماذا نخرج عن القاعدة ونترك ذلك للحظ، رغم أن هذه المرحلة هى أهم مراحل الحياة كلها؟! أليس فى المعاملات التجارية ينبغى أن تكون الكفتان متعادلتين؟ وأنا إذا طلبت زوجة جميلة وعطوفة ووفية مثلى، لم أطلب الكثير.

فتأوهت وقالت: خلق الأزواج متساوين ومتوافقين أيضًا، لكنى أعرف لماذا يختفى أحدهم طبيعيا فى أحد أركان الدنيا أحيانًا،

فلا يصل كل منهما إلى الآخر بسهولة، إننى أبتهل إلى الله صباحًا ومساءً أن يوصلك إلى ما تتمنى.

ابتسمتُ بغرور وقلت: اطمئنى فسوف أحصل على ما أتمنى.

صعدت إلى حجرتى، وفى منتصف السلم تحيرت ووقفت، فقد كانت تلك الكلمات التى قالتها أمى تدور برأسى "العشق هو قمار، الأزواج كل منهما يوافق الآخر... فلا يصل كل منهما إلى الآخر بسهولة" كانت هذه الكلمات كأنها صراخ مفزع، انتزعت نفسى بمشقة من المكان وقلت: أمى تخطئ، أو أنها لا تريد أن أكون مغرورًا منافقًا، وإلا فهى ترى كيف أن الجميلات تلقين بأنفسهن حول شمع وجودى كالفراشات. عندما نذهب معًا إلى السينما والتنزه، تعرف جيدًا أن البنات يراقبننى من أطراف أعينهن أو تتحير بعضهن عندما يجذبنى ساعد أمى من بينهن....

كنت أقول لنفسى: إلهى، إن من يستطيع أن يخلق "أليس" بهذا الجمال، و"مادلن" بروح بهذا الكمال، بالطبع يستطيع أيضًا أن يخلق الكيان الذى يجتمع فيه هذا الكمال والجمال معًا، وإلا ما زرع بقلبى الأمل فى ذلك، ينبغى أن أتحلى بالصبر وأبحث حتى أعثر على الدمية التى خلقها الله جديرة بى...

أخذنى النوم وأنا فى هذا التفكير، وفى الصباح ذهبت إلى المكتبة للمذاكرة قبل الذهاب إلى المدرسة، تعلقت عينى لا إراديا

بمكان لوحة الراعى. تخيلت أننى أرى ذلك المنظر وأسمع صوت ناى الراعى حين يمتزج بحديث "مادلن" فيتعانقان ويضطربان، فتظهر فى كل جملة آلاف النظرات وأوجه الغرور والأجساد والقوام والوجه والوضع والحالة والأفكار البديعة. ولأول مرة أشعر بمشرط الاحتياج وهو يغوص بقلبى فاحترقت من الندم على أننى قد بعت تلك اللوحة بالمال. كنت أندم لأننى لم أحتفظ بذلك المنظر الجميل فى عينى ووجدانى، حتى أستطيع أن أراه فى الخيال وقتما أريد!

عندما حـان وقت المدرسة مشيت ناحية مـنزل "مـادلن" بلا تردد أو تفكير، كأننى كنت قد قررت ذلك. ذهبت كى أسترجع لوحة الراعى بعينى ووجدانى، فكنت أنظر إلى اللوحة بدقة ثلاث مرات كما قرأت فى قوانين حفظ الذاكرة، وبعد كل مرة أغمض العينين بضع ثوان، وأرى ذلك المنظر بداخلى حتى يرتسم فى ذاكرتى. لكن ربما تكون الحقيقة هى أننى ذهبت كى أدفع "مادلن" إلى الحديث، فأسمع لحن صوتها مرة أخرى، وأشاهد روحها فى الروضة المليئة بالزهور.

وصلت إلى منزل "توماس" ودققت الجرس بيد ترتجف، ففتحت النافذة الصغيرة التى تعلو الباب، وأطلت رأس ثم دخلت دون أن تتحدث ثم أغلقت النافذة. رأيت أنها كانت "مادلن"، لكن لماذا لم تتحدث وأغلقت النافذة؟ فقلت لنفسى: كأنها تقول لقد جئت بلا موعد، لهذا فلن تأتى هى وسترسل والدها يفتح لى الباب. تحيرت، أمن

الممكن أن تكون عيون "مادلن" العابدة للجمال لم تر جمالى!؟ فلماذا إذن لم تفرح لرؤيتى وتضحك فى وجهى ولم تقل "تفضل" بسعادة وشوق؟

بينما كنت فى هذه الحيرة، علا وقع أقدام بالممر. كانت الخطوات منظمة هادئة، لكنها ليست ثقيلة كى أتصور أن الأب هو الذى سيفتح الباب لى. وأدركت أنها "مادلن"، لكنها تأتى غير مسرعة أو متعجلة! وفكرت أننى ليتنى لم أكن جئت، أو كم يكون جميلاً إذا رجعت.

فتح الباب، واستوقفتنى العينان الجميلتان فى المكان. لو لم تكن هذه العيون جذابة، لكنت أقرأ فى ذلك الشكل البارد الثابت أنها تقول ماذا تريد؟ لماذا جئت لزيارة الناس بلا موعد!...

كنت أعتقد أن أحوال قلب "مادلن" ستبدو على ملامحها، ثم أدركت أنها لا يمكن أن تأخذ طريقها بسهولة من هذه النافذة إلى روضة الوجدان. فهمت أن الحزن والسعادة، العشق والألم، الأمل واليأس، لا يمكن لأى منها أن تكون لها الجرأة على الخروج من الوجدان الخفى دون السماح لها بذلك.

سلمت واحترت، فماذا أقول؟ لأن السبب الحقيقى الذى جعلنى أقصد منزل "مادلن" بدا لى فى هذه اللحظة أنه واهٍ ولا يستحق القول.

بعد لحظة تأمل إيذاء صمتي قالت: إذا كان لديك أمر مع والدى فهو ليس فى المنزل. فقلت بلسان متعثر ومتردد: لا شأن لى معه، لقد جئت لتلك اللوحة. فقالت: أتريد أن تستعيدها؟ معك حق، أنا سأرضى والدى بألا يتخذها كتجارة. فقلت: لا، أريد أن أرى تلك اللوحة مرة أخرى...

أغمضت عينيها لحظة وفتحتهما، فكان فى تلك اللحظة كتابًا من الفكر والعقل، لكنى لم أكن أجيد بعد قراءة فكرها.

قالت: تفضل. وأخذت تمشى، دخلنا حجرة غير مرتبة ومبعثرة، كانت مليئة باللوحات الفنية والتماثيل والآثار الفنية. استدارت وأخرجت لوحة الراعى، والتى كانوا قد وضعوها على الأرض من وراء لوحة أخرى، ثم وضعتها أمامى بحيث تُرى عيناها الجميلتان من أعلى اللوحة.

قدمت لها الشكر وشغلت بالمشاهدة، ولكن الشىء الذى لم أكن أراه كان هو اللوحة، كأن تلك العينين الجميلتين مصباحان ممتلئتان بالنور، قد عرقلا عينى عن العمل. وهكذا تبدل حالى من الخجل والندم، بحيث كانت الحجرة تدور حول رأسى.

قلت: هذا يكفى. فحملت هى اللوحة حتى تضعها مكانها ووقفت أنا كالأبله، وكان حلقى مقبوضًا حتى إننى لم أستطع أن أنطق بكلمة واحدة.

جـاءت ووقفت بجانبى، وبعد لحظة صمت، عندما رأت أننى لا أسير ولا أقول شيئًا، قالت: أنا أفهم هذه الحالة وأعطيك الحق، فالمشغولات الفنية تأسرنا أكثر من أى شىء، وبالطبع فإن الرغبة أيضًا لا تتراجع دون ألم، لكن إن لم يكن ألم الفن وتعبه فلن يكون للحياة متعة. الحيوانات تعيش أفضل منا حالاً لأنها تعيش على المطالب المادية للحياة، فهى تعرف ماذا ينبغى أن تأكل وتشرب، تعرف أصدقاءها من أعدائها ولا تسرع الخطى فى صراع الحياة نحو الخطأ مثلنا، ولا تتقيد بحيرة الجهل واضطرابه. أما أفضليتنا نحن فهى من أجل الفن، فنحن نتألم ونتعذب وربما لا تعرف الكائنات الأخرى شيئًا عن ذلك. نعم فالجمال هو منبع آلام متعتنا، ونحن نجد السعادة المثيرة للشجن من لحن النسيم وتراقص الأغصان وهدير ماء النهر، ونستعذب الألم لمشاهدة لون القمر، ويعتصر الشوق قلوبنا من فرط السعادة أمام الأعمال الفنية العظيمة، أنا أعطيك الحق فى أن تتأثر لفقد هذه اللوحة، وأحسدك على هذا التأثر والمعاناة من أجل الفن.

***

قدمت الشكر وصافحتها وذهبت. كنت متأثرًا حقا، لكن بسبب التساؤل لماذا جاءت عيون "مادلن" بهذا الجمال، ولماذا تتمتع بكل هذا الذكاء والشعور، ولماذا إذن هى ليست جميلة!...

على مائدة العشاء سألت أمي: لماذا لا تتحدث، لماذا تفكر كل هذا؟ قلت: قلبي حزين لأننا قد بعنا تلك اللوحة، ليتنا كنا بعنا شيئًا آخر.

لم تدعني أتم الكلام، قالت: أنا كنت أعرف أنك أيضًا مثل والدك وستكون أسير هذه التحف الفنية، وأنك ستتألم لعدم وجودها.

صمتت وأخذت تفكر. فقلت: تكلمي فيم تفكرين؟ واستعادت نظرها من نقطة مجهولة وقالت: صحيح ينبغي أن أعمل ليلاً في المنزل حتى أحصل على أموال أكثر ولا نحتاج إلى بيع متاعنا. قلت: مستحيل! بل بيعي كل ما لدينا لكن لا تعملي أكثر من ذلك، فصحتك أغلى كثيرًا من الدنيا.

عندما رأيت أنها نسيت القهوة وأخذت تفكر مرة أخرى. قلت: أمي الحبيبة، لا تحزني دون سبب. أنا لا أتصور أنني أسير تلك اللوحة، فإذا كنت قد ذهبت اليوم إلى منزل "توماس" فربما كان السبب هو رؤية "مادلن" وليس تلك اللوحة...

كأنها ألقت بحمل ثقيل عن كاهلها، فرفعت الرأس وتهلل وجهها، قالت: فهمت، كنت تذهب لترى ربما تكون "مادلن" في نظرك أجمل، أو أنها قبيحة فتستطيع أن تغض الطرف عنها تمامًا، ذهبت لتقارن بينها وبين "أليس"...

قلت: لقد أدركت الحقيقة، أنا لا أملك شجاعة مواجهة هذه الحقائق، ينبغى عليك مساعدتى بأن تزيحى الستار عن مكنون أفكارى.

حكيت لأمى كل ما دار برأسى من أوهام، دون زيادة أو نقصان، عن سبب زيارة منزل "توماس"، فما أكثر ما كانت تضىء لى جوانب دفينة عن أحوالى ترد على لسانى أثناء الكلام، بعد أن اتسع صدرها واستمعت جيدًا إلى حديثى الطفولى، وربما عادت إلى ذكرى شبابها وعشقها لوالدى وذلك العالم لسماعها ذلك الحديث، تأوهت وقالت: ليته كان من الممكن أن يضع الشخص الأعمى يده فى يد مرشده ويمضى مطمئنًا، فيعبر كل طريق بسهولة ويسر، الشاب أيضًا يستطيع أن يترك قيادة قلبه لصديق محنك. إن كان الأمر كذلك لكنت أقدم لك كل ما لدى من تجربة وأختار لك تلك الزوجة التى تستحقك، لكن ما يقبله عقلى لن يعجب قلبك. وعلى هذا فنصيحتى الوحيدة لك هى ألا تتسرع فى أمر العشق الخطير؛ فأنت شاب ولا تزال الفرصة سانحة لك.

***

ذهبت إلى حجرتى ووقعت على فراشى، فجأة تضاءل وابتعد البئر العميق للقلق والشك الذى كنت على حافته، وتحطم قيد أسرى

وشعرت بالحرية وحلقت فى الخيال، لمجرد أننى لا تزال أمامى الفرصة...

كنت مشغولاً بمشاهدة "مادلن" بعض الوقت، حتى سيطر على كيانى ذلك الذكاء الحاد والعقل ورقة المشاعر التى كانت واضحة فى مرآة فكرها، وكنت قد رأيت ذلك الهدوء والوقار والعطف والعطاء شيئًا فشيئًا فى نظراتها وحركاتها. وافترضت للحظة أننى أتمتع بذكاء وطيبة "مادلن" وقمت بمشاهدة أحوال "أليس" بعيونها، وقلت لنفسى: لماذا لا أعفو سفه الشباب لجمالها الخارق، أليست الفراشة البريئة أيضًا عادة ما تكون لاهية متهورة مفتونة؟ فـ"أليس" كلها من الرأس إلى أخمص القدم رقة وشعر، فلماذا أطلب منها أن تكون جذابة مثل "مادلن" وتقول الشعر!؟ لماذا لا يكون الشعر الحقيقى هو المنزل الفخم والمجوهرات والملابس الفاخرة على حد قولها هى، وليست تلك العبارات الموسيقية التى تهب علينا كالرياح وتمضى؟ أو من أين لى أننى لن أستطيع أن أعلم "أليس" ذات يوم أنه لو لم يغرد طائر الشعر فى منزل فخم وبين الجمال الكثير فكأننا نحتضن معشوقاً بلا روح؟ على أى حال، فإن أسلوب فكر "أليس" وأمانيها ستكون أفضل باعث لى وسوف تدفعنى للدراسة أكثر، حتى أستطيع أن أعوض ما مضى وآخذ أمى من ذلك العهد، وأستجيب لجنون "أليس" الجذابة، إلى كل ما هو ثمين من ذهب ومجوهرات.

لكن لو لم يذهب طيف "مادلن" من خيالى، وامتزج دائمًا مع فكر "أليس" لكان كاللحن الجميل أو الشعر الأخاذ الذى أسمعه فى الصباح فيؤثر فى أفكارى وأعمالى طوال اليوم، ويكون معى فى كل الأحوال. كنت أرى أنه ليس فقط يمنع عنى الأذى بل كنت أرى أنه بتأثير تلك العيون الجياشة بالعاطفة، وذلك الوجدان الرقيق، فإن كل غلظة وخشونة لـ"أليس" ستكون محتلمة وناعمة وسلسة.

مشيت طويلاً مع الأمل فى الفضاء اللانهائى للمستقبل وسعدت حتى أخذنى النوم.

عصر الغد كنت ألعب التنس مع "أليس" مستريح البال هانئ الوجدان وبقوة وتركيز، فقالت: أنت اليوم تلعب أفضل من أى يوم آخر؟ قلت: لأنك أجمل من كل يوم.

بعد ذلك طأطأت الرأس لأسفل للحظات، وكانت تتحرك بمشط قدمها على الأرض. قالت: لكنى أخاف أن يكون ما تقوله هو شعر فى الهواء. قلت: ليس شعرًا، أتمنى أن أدرس جيدًا وأعانى حتى أصبح ثريًا لأننى أعرف كم تحبين الزينة.

صافحتنى وقالت: أحسنت، هذه هى المرة الأولى التى أسمع فيها منك كلامًا عاقلاً، لكن ليت تذكرة يا نصيب باسمى كانت تفوز كى نترك المدرسة والتعليم ونسعد. قلت: بشرط أن أجد أنا النقود أسرع مما تتمنين.

شغلنا مرة أخرى بلعب التنس ولعبنا ساعة بعشق، فى نهاية الوقت عند افتراقنا دعوتها إلى حفل عيد ميلادى فى المنزل.

***

كنا نتحدث أنا وأمى على السفرة عند تناول العشاء عن المستقبل، وكنا سعداء. قلت: أعتقد أننى أستطيع أن أنهى عامين دراسيين فى عام واحد حتى أصل سريعًا إلى ما تتمنين يا أمى العزيزة. قالت: أمنيتى هى أن أعيش حتى آخر العمر فى مزرعة بالقرب من المدينة، أى تلك المدينة التى سيكون منزلك بها، وأبيع اللبن. أنا متأكدة أننى أستطيع أن أربى قطيعًا من عشرين بقرة بمساعدة عامل واحد، والآلات الحديثة. فإذا استطعنا أن ندبر ثلث ثمن المزرعة فسوف نسدد الباقى فى فترة وجيزة وسيكون ذلك أفضل رأس مال لك، لأننى متأكدة من أننا سنحصل على عائد طيب من هذا العمل.

قـلت: ليس لدى شك فى ذكـائك ومهارتك وخبرتك، لكنى لا أعرف لماذا لم تطرحى هذه الفكرة على أبى؟ قالت: والدك كان يهرب من حياة الريف على العكس منى. قلت: لكنى عاشق للصحراء والطبيعة، وعندما يبدأ مشروعك ويكون لديك أبقار سأترك أى عمل آخر مهما كانت فائدته، وآتى لمساعدتك بدلاً من ذلك العامل.

صمتت وأخذت أفكر. قالت: فيم تفكر؟ قلت: أخاف ألا ترضى زوجتى بحياة الريف، لا أعتقد أن "أليس" "تستطيع أن تبتعد عن مشاهدة الشوارع والمحلات أكثر من يومين. قالت: إذا كانت تحبك فسوف ترضى وتسعد بأى مكان معك.

لم أكن أتصور قط أن هناك بنتًا لا تحبنى، فاصطدمت لسماع شرط الحب وأنه "إذا كانت معشوقتك تحبك فسوف تكون راضية سعيدة معك في أى مكان". تحسرت وتنبهت إلى أن "أليس" لن تأتى إلى أى مكان، إذا كان هذا هو شرط المحبة، وعلى ذلك فهى لا تحبنى.

فكان مزيج من مشاعر الخوف والحزن والدهشة تغوص فى قلبى، لكن أمى كانت مشغولة بمشاهدة تلك المزرعة الخيالية حتى إنها لم تلحظ اضطراب حالى. قالت: إن خدمة عشرين بقرة بهذه الآلات الزراعية والمعدات الكهربائية وفق قواعد واضحة سليمة، لن يأخذ من وقتى أكثر من بضع ساعات، وسأقضى باقى وقتى فى انتظار زيارتك لى يومًا وليلة فى الأسبوع؛ لقراءة الكتب وعزف البيانو. خسارة أن والدك لن يكون معنا...

كانت أمى تتحدث وكنت أنا أعانى فى الخيال من الصراع، كنت أرى أن "أليس" لن تكون مستعدة أن تأتى معى مرة أسبوعيًا إلى المزرعة، وينبغى أن أقضى اليوم والليلة تلك وحيدًا حزينًا مع أمى،

وأعكر صفوها وأضايقها. فجأة تذكرت أنه إن كانت "أليس" معاشرة لأمى، فسوف تعرف معنى العشق والمحبة، فقلت: أمى الحبيبة، لقد دعوت "أليس" مع أمها وأبيها باسمك لحفل عيد ميلادى، وأتمنى أن تعلميها أنت بعد ذلك.

كأنها سمعت كلامًا عجيبًا، فنظرت إلىَّ فى دهشة وقالت: ألا تعرف؟ حقا فالذنب ذنبى لأننى لم أخبرك بما قررته. لقد قررت ألا ندعو أحدًا إلى حفل عيد ميلادك، سيقتصر علينا أنا وأنت، لأن نقودنا هذا العام لا تتحمل مثل هذه النفقات.

فصرخت بداخلى قائلاً: لا تقولى، لا تقولى... إن ماء وجهى سيراق أمام "أليس". ألا تعرفين ما أهمية موضوع الثروة بالنسبة لها؛ أخشى إن عرفت أننا لا نملك تكاليف حفلة، أقرأ فى عينيها أشياء تمزق قلبى.

رغم أن ذلك لم يرد على لسانى، فإنها سمعت بما لديها من فراسة وحب الأم صراخى وعويلى وقالت: الآن وقد دعوتهم فلا حيلة لنا، لكن بعد ذلك تذكر أنه ينبغى أن تتشاور معى فى مثل هذه الأمور.

شعرت بالخجل وطلبت المعذرة، قلت: رغم ما لدى هذا العام من برنامج مكثف لاجتياز عامين فى عام، فسوف أعمل فى العطلة

القادمة بعمل يدوى، وأتقاضى أجرًا؛ كى أحصل على نفقات هذا الحفل. فقالت: سأكون أسعد حالاً حينما تعمل.

لكن كان هذا الكلام العقل وليس القلب. ألقت بالرأس للحظة للأسفل وشغلت بجمع الأدوات التى على المنضدة، وعندما رفعت الرأس رأيت بعينيها لمعة الدموع التى تلغى ذلك الحديث.

قالت: لكنى لا أرضى لك بتحمل متاعب أخرى مع ذلك البرنامج المكثف، أخشى أن تصير ضعيفًا وتتخلف عن الدراسة، وهى أهم من المال.

ساد بيننا الصمت لحظة ثم قالت: كنت أبحث هذه الأيام عن ذريعة وأبلغ عمك بأن احتفالنا قد تعطل هذا العام، لكنى كنت أتمنى ألا أكون كاذبة، ومن ناحية أخرى، كان من الصعب أن أقول الحقيقة حتى لا أؤذى روح "ألفونس"، لأن عمك هذا كان منافسًا لأبيك. تفصيل ذلك أننا كنا فى بداية حياتنا من الأغنياء، بينما كان هو فقيرًا، نصحه والدك مرة ومرتين بصداقة وود كما تعرف وأرشده إلى الخير، فاصطدم معه وأخذ الحقد يملأ قلب عمك، ثم انقلب الوضع وأصبحنا نعانى نحن من الفقر وهو غنى. فجاء ذات يوم وقدم تلك النصائح بطريقة غير مناسبة إلى والدك مرة أخرى، وتحدث عن نجاحاته وأملاكه ثم ذهب. لم يتحدث والدك بعد ذلك مطلقًا معى عن تلك الواقعة لكنه كان يحرص دائمًا ألا يعرف أخوه شيئًا عن

مشكلاتنا. الآن وقد دعوت "أليس" ولابد من إقامة الحفل، فقد زال الحمل من على كتفى ولن نضطر للكذب، وسوف ندعو عمك وأسرته اليوم. قلت: أفهم إذن من هذه التفاصيل أن "ميشيل" ابن عمى قد تعلم الغرور والكذب عن والده. لقد دعانى مرات إلى مطاعم فخمة ولم أقبل دعوته، المرة الأولى قلت لن أقبل دعوتك لأننى لا أستطيع أن أرد الدعوة، لكنه كان يصر فى كل مرة حتى إنه قال ذات يوم، إن كل شخص ينبغى أن يكون كلامه بقدر نقوده، وأنا رجل غنى ويمكننى أن أعرض عليك ما لدى، وأنت غير مجبر على دعوتى.

قلت: اطمئن فأنا لن أسمح لنفسى أن أسطو على ثروة عمى وأنا طويل القامة هكذا، فأكون حقيرًا مكروهًا مثلك.

فرأيت إحدى التجاعيد الصغيرة فى جبين أمى وقد ظهرت فجأة كسحابة خفيفة فى سماء أمى الصافية، ثم اختفت وراء الشمس فتضايقت. قالت: إذا كان الحديث عن الثروة من وجهة نظرك قبيحًا وغير مستحب، فإن الغرور بالقامة الرعناء والشكل الجميل أيضًا كذلك، وينبغى أن تأخذ العبرة من عادات "ميشيل" غير المحببة، فلا تشير مطلقًا إلى قامتك الرعناء حتى لا يضحك الناس فى داخلهم، ولا يتضايقوا منك. بالصدفة فأنا كنت أرى اهتمامك بوجود الجمال، وكنت أتحين الفرصة وأفكر فى أن أقول لك إياك أن تجعل الجمال أساسًا لسوء حظك، واعلم أن الله يهبنا الجمال من أجل تحسين النسل ورقة مشاعر الناظرين إليه. الشخص السيئ الحظ هو الذى يطلب

ضريبة الجمال، فسوف يدفع مئات أضعاف ما أخذه فى نهاية الزمان.

لم أفهم نصيحة أمى وتعقبت خيالى وسألت: ترى هل تهتم البنات بالثروة أكثر؟ أو بالجمال؟

أردت أن أعرف بمنافستى لميشيل، هل سيصل ابن عمى الغنى إلى العشق والسعادة أو أنا...

قالت: البنت أو الولد عديم التجربة يخدعه الجمال أو الثروة أو كلاهما معًا، لكن من يعتبر أن السعادة أغلى من كل نعمة أخرى فيفتنه الخير والحب: فماذا أفعل أنا حتى أستطيع أن أتغاضى عن الجمال وليس عن الحب والخير؟ قالت: من أين لك ألا تكون من العباد المقربين، وأن الله لن يخلق لك تحفة نادرة تكون جميلة وطيبة أيضًا؟

***

بينما كنا في هذه المناجاة إذا بجرس التليفون يدق، رفعت السماعة وتعجبت، فقد كانت السيدة "جوستاو"، التى كانت تأتى إلى منزلنا من الساعة الثانية إلى الرابعة بعد الظهر فى الأيام التى لا نكون فيها أنا وأمى فى المنزل، كانت تأتى فترتب الحجرات وتغسل الأطباق وتعد السفرة للعشاء.

قلت: ماذا لديك هذه الليلة؟ قالت: هل رأيت اللوحة التى أحضرتها السيدة "مادلن" وعلقتها فى مكانها بالمكتبة؟ قلت: لا. قالت: بالتأكيد ستقع عيناك عليها الليلة أو غدًا ولم تكن هناك ضرورة لتليفونى، لكنى اتصلت كى أخبرك بأن السيدة "مادلن" قد سلمتنى رسالة لك أيضًا وربما أكون قد وضعتها على منضدة حجرة الضيوف، أو فى مكان آخر بدلاً من أن أضعها أمام عينيك على السفرة. معذرة، فقد نسيت.

وضعت السماعة ووقفت مكانى فى دهشة وحيرة. لم أكن أعرف هل ينبغى أن أحكى القصة لأمى أولاً، أو أذهب لأرى اللوحة وأعثر على رسالة "مادلن". كانت أمى تتساءل: مَن على التليفون؟ فقلت: سآتى حالاً وأخبرك.

جريت وأحضرت رسالة "مادلن" من المضيفة وحكيت لأمى بالتفصيل. رأت فى عينى أننى لا أحبذ أن أقرأ تلك الرسالة أمامها. قالت: هذه رسالة لك، فاقرأها عندما تذهب إلى حجرتك.

ذهبت وشاهدت اللوحة فى المكتبة ورجعت، وفتحت الرسالة أمام أمى وقرأتها بصوت مرتفع، ولم أقبل أن أخفى شيئًا عن أمى، كانت "مادلن" قد كتبت تقول:

"عزيزى السيد "ويليام"، اغفر لى هذه الأنانية، لم أستطع ألا أشعر بألم فراق هذه اللوحة الجميلة، بأن أشاركك حرمان الفن.

لا أتصور أن تكون هناك متعة أفضل وأسمى من أن تشغلنا متعة الاشتياق إلى الفن، نحترق بنيران ذلك العشق. وأنا أعانى بدلاً منك متعة فراق اللوحة الآن".

"مادلن"

نظرت فى عين أمى لأرى بم تأمر، وإلى أى درجة يستطيع عقلى أن يخضع لفضل "مادلن" وإلى أى مدى أحرر قلبى، حتى يذوب رقة.

ألقت الرأس لأسفل وشغلت نفسها بترتيب الأدوات على المنضدة.

قلت: أمى الحبيبة، سمعتِ ماذا كتبت "مادلن"؟

فسمعت الرد من صوت دمعة سقطت فى الطبق، صمتُّ وأوصلت نفسى بهدوء جانبها وقبّلت وجهها وصعدت إلى حجرتى.

***

بعد أن كنت متحيرًا مندهشًا لفترة فى خضم الخيال ولا أعرف فيم أفكر، فجأة سال دمعى وبكيت بكل قلبى. بعد ذلك الطوفان من الدموع، أضاءت سماء خاطرى واستطعت أن أرى أفكارى التى تحلق فى السماء هنا وهناك، فتتعانق وتشدو أحيانًا وتضطرب أحيانًا. رأيت أن هبة "مادلن"، هى مصباح يشع بالنور

على ظلمة فقرنا وحاجتنا، وأن هذا الإحسان هو جزاء قصر فكرى وعمى القلب الذى أصابنى، عندما كنت أفضل حسن الصورة على جمال السيرة. رأيت بكل أسف وحيرة أن "مادلن" أقدر منى على الفهم، وأكثر حبًا للفن.

أوصلت نفسى بهدوء، وحتى لا تستيقظ أمى، إلى المكتبة، ووقفت أمام لوحة الراعى. لا أعرف كم مضى من الوقت وكم قطعت من المسافات حتى ظهرت "مادلن" فجأة داخل ذلك المنظر، وأخذ ناى الراعى فى العزف، والطيور تحلق شوقًا والأشجار تهمس إلى بعضها البعض فتحدث حفيفًا. أعادت الملائكة لوحة السحاب، ونثر البدر كل ما لديه من فتنة وجمال على رأسها. كان النسيم قد أخذ بأمواج جدائلها ومهما حاول لا يصل إلى نهاية. كنت أسمع "مادلن" تتحدث هادئة فتفتح بسحر بيانها طومار الطبيعة المعقد أمام عينى، فكنت أرى ما لا أتخيل من الجمال.

ورويدًا رويدًا... سيطر وجود "مادلن" على فضاء عينى وخيالى، ولكن العجيب أن "مادلن" كانت فى شكل "أليس" وكلما حاولت أن أفصل هذه الصورة، وذلك المعـــنى عن بعضهما البعض لا أستطيع. فى تلك الليلة كنت أرى "مادلن" و"أليس" فى الحلم واليقظة حتى الصباح وقد امتزجتا ببعضهما البعض وصنعتا ذلك المعشوق الذى رسمته يد القدر على لوح أملى، لكن للأسف فإن ذلك الحلم والخيال لا يستمر.

وعلى مائدة الإفطار عرفت أن أمى قضت ليلة غير مريحة من لونها المكفهر، تلاقت عينانا وفى نظرة اعترف كل منا باضطرابه.

قلت: أمى الحبيبة، ألم تردى قيمة هذه اللوحة إلى "توماس"؟ قالت: لماذا؟ قلت: لأن هذه الهدية التى أرسلتها لى "مادلن"، لا أملك ما أعطيه لها بدلاً منها. هل يجب أن أرسل لها اللوحة مرة أخرى؟

فابتسمت بحزن وقالت: أنت لا تملك ذلك القلب القاسى حتى تؤذى مشاعر "مادلن"، حاول أن ترد ذلك الفضل يومًا ما.

سألت أمى عن معنى هذه العبارة بالعين، وقرأت فى عينيها أن الرد على هذا الفضل لا يكون إلا بالمحبة والخير.

قلت: لكن ماذا أفعل كى أصبح مغرمًا بعقل "مادلن" ورقتها وجمالها أكثر، فمحاسن "أليس" تبدو فى نظرى أكثر، ماذا كنت تفعلين إن كنت مكانى؟ فكرت وقالت: أنا لا أتدخل فى شأن من شئون قلبك – لا قدر الله – فالحرية والاختيار، هما أعظم نعمة، لكن حرية القلب هى أسمى الاختيارات. كما أعرف وبالقدر نفسه أن وديعة الجمال هـذه، هى شمع متوهج وضعته الطبيعة بين يديك، فكن حذرًا حتى لا تحرق الآخرين إذا احترقت...

***

طوال ذلك اليوم وأنا فى تردد، هل أذهب للعب مع "أليس"؟ أو أذهب إلى منزل "مادلن"، إلى أن وصلت من "أليس" رسالة تقول فيها: لن ألعب اليوم، لدى أمر مهم.

تخلصت من التردد وذهبت لرؤية "مادلن". بمجرد أن دققت الجرس فتحت نافذة الباب العلوية، وعلى عكس المرة الأولى فقد أطلت عليَّ ابتسامة مشرقة مليئة بالحب من هاتين العينين بدلاً من تلك النظرة الجافة. جاءت وفتحت الباب وقالت: تفضل. وعندما دخلنا حجرة الاستقبال، أشارت إلى الكرسى وقالت تفضل بالجلوس، بعكس اليوم الأول فلم تسمح لى بالجلوس.

تذكرت أنهم قد قالوا: كل محبة نقدمها لشخص آخر، هى بمثابة قيد نضعه على عاتق الآخرين. فقلت لنفسى: إن هذا العطف هو المكمل لتلك المحبة التى قدمتها لى، و إلا فلماذا لم تبد لى هذا اللطف فى المرة الأولى! قلت لنفسى: إن هذه المحبة كانت مراعاة لفقرنا، وإلا فإن "مادلن" لا تكنُّ لى مشاعر الحب.

فتضايقت وسألت بكل شجاعة: لماذا هذه المعاملة الجديدة؟ يعنى إعادة تلك اللوحة لنا، كم يطلب والدك من ربح؟

فتأملت وقالت: بالطبع سأطلب منك ثمن اللوحة لكن ليس الآن، سأنتظر حتى تتم تعليمك وتحصل على أعلى الدرجات، ويكون لديك عائد كبير تستطيع منه أن تدفع ثمن هذه اللوحة.

قلت: كم يكون جميلاً إذا عرفت سبب لطفكم معى، هل لأننا فقراء؟

فاحمر وجهها، وأذاعت سرًّا لم أسمعه، لكن قلبى سمع وفهم من نظرة شاردة فى الخيال، وقفت وأمسكت يدها وقبّلتها، وبعد أن خيم الصمت للحظة قالت: أنت لم تعرف شيئًا بعد عن حب الأمومة الذى خلق فى كيان كل امرأة.

دون أن تنتظر الرد منى وحتى تخفى اضطراب حالها، قامت وقالت: اسمح لى أن أعزف لك على البيانو.

انشغلت بتصفح أوراق نوتة مجموعة الألحان، بالمصادفة اختارت اللحن المفضل لدى من ألحان "شوپان" وعزفت المقطوعة التى أحبها أكثر من غيرها. كنت قد سمعت هذه المقطوعة مائة مرة، لكن لم أكن أعرف مطلقًا أنها بتلك الرقة والحرقة. لا أستطيع أن أقول: إن "مادلن" كانت أستاذة، أو إن لديها قدرة ومهارة فائقة فى العزف، لكنى إذا قلت إنها كانت تعزف بحب، فربما أكون قد استخدمت الكلمة التى لن يفهمها من لم يسمع لحن "مادلن" ولم يعرفها.

صحيح أن "مادلن" لم تكن الوحيدة التى تعزف بحب، لكنها كانت تسير بحب وتجلس وتنهض بحب، كانت نظراتها وصوتها وحركاتها كلها حب.

بكل الرقة التى سيطرت على كيانى فى تلك اللحظة أخذت أغنى بصوت جميل، فغنيت تلك المقطوعة بكل حرقة واضطراب حتى إننى لم أكن أتصور أننى أستطيع أن أغنى بهذا الجمال مطلقًا. قطعت "مادلن" العزف مرتين وقالت: أحسنت!

لكنى لا أعرف لماذا كنت أتخيل أن "أليس" أيضًا تسمع صوتى وتمدحه!

عزفنا بعض الألحان الأخرى أيضًا، غنينا بشغف ووجد، ثملنا حتى نسينا الوقت. فجأة أفقنا على كُحَّة؛ فقد دخل والد "مادلن" الحجرة وكان يقف وراءنا. بعد السلام والسؤال عن الأحوال قال: خسارة أن يضيع الشباب فى اللحن والغناء، خسارة الأموال الباهظة التى ينفقونها على الأوهام الكاذبة، أتعرف بكم اشترت منى "مادلن" لوحة الراعى تلك التى أعادتها إليك؟

وقفت عاجزًا ومتحيرًا. قال: ربحت منها مائة وخمسين دولارًا، وتركت خمسين دولارًا أخرى؛ فقد عرض شخص آخر مائتى دولار مكسبًا، لكن اسأل ابنتى هذه لماذا تدفع مدخراتها القليلة من أجل شخص كهذا؟! فإذا كان يعشقها ينبغى أن تستفيد من هذا المرض وتأخذ من خطيبها هدية، لا أن تدفع هكذا. بكت "مادلن" قائلة: كفى والدى العزيز! فقال والدها: بالطبع لأنك تعرفين أننى أقول الحق، فلن تدعينى أتحدث.

ضحك وخرج من الباب. قبض حلقى من الكراهية والحقد، مددت يدى لأودعها وأذهب فأرسل لها تلك اللوحة. تضرعت "مادلن" بلون مكفهر ونظرة تنم عن الاعتذار، قالت: أرجوك اجلس حتى أوضح لك.

وبعد أن أغلقت النوتة الموسيقية وأنزلت باب البيانو بهدوء، جاءت وجلست بجانبى وقالت: إن والدى رجل طيب، وهو فى النهاية يعتقد بأنه ينبغى أن يكون عاقلاً جدا، يعبد المادة، ينسى أن العقل الناضج والمجرب يدفع الكثير من الأموال، لأن الماديات إن لم تهتم بأمر القلب فإنها ستكون كالحجر بلا قيمة. وقد حاول طويلاً أن يقتل قلبه، لكنى أعرف أنه لا يزال ينبض، وأن قلة من الناس ممن يدركون قيمة الفن مثله ويرون الأعمال الفنية الدقيقة؛ إذ كيف يكون هناك عقل فنان ولا يكون لديه قلب محب للفن!؟ فإذا كنا نرى أن بعض أساتذة الفن والأدب الذين لا تستجيب عقولهم للقلب، ويستخدمون كل ما اكتسبوا من أدب وفن فقط للتكبر والوصول إلى الجاه والمقام، فكأن كل هذه النصائح والحكمة والمعنى، هى سلاح للصراع مع أنفسهم. ولا ينبغى أن يخدعنا الظاهر، لأن هؤلاء الناس العقلاء الماديين ليسوا بلا نصيب من الفراسة والأمانى والسعادة وأحزان القلب، أى الحياة الإنسانية، وليست الحياة المادية الجافة. إلا أنهم قد قذفوا بقلوبهم إلى السجن على عكس الفطرة، ووضعوا العقل بمثابة قفل ثقيل على هذا السجن، وينبغى أن تعانى قلوبهم مما يجره

هذا العقل الظالم عليهم، ووالدى مغرم بالموسيقى والغناء، لكنه يندم على إضاعة الوقت فى الموسيقى، أى أنه يضيع أدراج الرياح، فى حين إنه ينبغى أن يصرف وقته للحصول على المادة. بناء على طبيعته العابدة للمال فإنه يفرض على نفسه بالقوة عكس الطبيعة، ويقول إن الشعر والورود والموسيقى والفن لا تعالج جراحنا، وينبغى أن يكون هدفنا الذى نسعى إليه بدلاً من ذلك هو الطعام والشراب والمال. لكنى متأكدة أنه يخدع نفسه ويعلم جيدًا أن عبادة المادة لا تكون إلا فى الخيال، لأن ضرورات الحياة ليست إلا لقمة خبز وسقف وخرقة، عدا ذلك... كل ما نريد هو وهم وخيال. ومنتهى خيال عبدة المادة أنهم جسم بلا روح، أما اعتقاد أهل القلب بأنهم روح ومعنى، وهو بلا أدنى شك أو تردد ما ينبغى أن يوصل طفل البشر يومًا ما إلى مرحلة الرشد... والسعادة. وسيكون ذلك بالروح والمعنى، وليس بجسد بلا روح.

قالت بعض هذه الكلمات وكان يبدو من البوح لى بأسرار أسرتها أنها تقبلنى بصفة صديق حميم، وكان الأدب يقتضى أن أفشى لها أنا أيضًا بعض أسرارى، وأبدى محبتى وأودعها رهنًا لديها. فكان كل ما فكرت فيه هو ضيق ذات اليد ليس إلا، وهو ما كان واضحًا لـ"مادلن"، ولم أجد سرًا فى حياة أسرتى غير ذلك. فجأة ونتيجة سماع كيفية أخلاق "توماس"، تذكرت طبع "أليس" وأحوالها،

فقلت: إن عبادة المادة لدى الرجل ليست بالأمر العجيب إلى هذه الدرجة، لكنه أمر مكروه لدى المرأة.

صمتُ لحظة وكأننى ندمت على أننى أغتاب "أليس"، فقالت "مادلن": المرأة ذلك القلب الرقيق الذى خلقه الله ليكون وقاية للرجل من الحزن، وإلا فسدت الدنيا.

قلت: "أليس" هى البنت التى تحاول أن تجعل هذا القلب الرقيق كالحجر الصلب، فهى لا تسمح بالشعر والألحان وكل ما هو من قبيل العواطف الرقيقة اللطيفة، ورغم ذلك فإننى لا أعتقد أن "أليس" هى أيضًا كوالدك وتعلن عن نفسها.

سكتُ وأخذت أفكر، فأدركت "مادلن" كم أعانى، لكنى لم أفهم لغبائى فى تلك اللحظة أن "مادلن" بهذا تعرف سرى. قالت: إذا كانت المرأة عابدة للمادة ومادية، فهى زهرة أحاطت بها الأشواك، وعليك أن تنزع أنت ذلك الشوك بسهولة ويسر عن روح الزهرة.

انفكت عقدة قلبى وبسرعة الخيال أخذت أعدد كل ما كان بروضة وجود "أليس" من أشواك التعصب والظلم، وصنعت لنفسى روضة مهيأة للنجاح. هكذا صرت مغرورًا بعد هذا النجاح ووجدت نفسى مرة واحدة لا أحتاج إلى "مادلن"، فقلت بوقاحة: فى اليوم الفلانى حين تأتين إلى حفل عيد ميلادى سوف ترين أن "أليس" بنت جميلة، وكم هى عذبة الحديث والابتسامة...

فتبسمت ابتسامة مبهمة، وقالت: بالطبع، فالشخص الذى يحظى بإعجابك لا ينبغى إلا أن يكون هكذا.

صارت "مادلن" فى نظرى هى المعلم والمرشد الذى يرسم لى طريق السعادة. وكما أنك عندما تقدم الشكر للمعلم تكون قد أديت له حقه، فقدمت وافر الشكر وانصرفت إلى المنزل.

***

على العشاء حكيت لأمى كل ما كنت قد قلته أو سمعته وفكرت فيه ذلك اليوم، وتوقعت أن تصوب هى أيضًا قرار "مادلن" بشأن تنقية روح "أليس"، لكنها لم تقل شيئًا وتحدثت كثيرًا عن الألحان التى كنا قد عزفناها وشدونا بها، وعن رأيى بأن "مادلن" كانت تعزف بحب. ووصلت إلى هذه النتيجة بأن الإبداعات الفنية هى دليل الفنان، وما أكثر ما يكون المطرب أو الملحن فى قمة تألقه وقدرته، لكنه لا يثير لدينا تلك الحالة التى ننتظرها والمؤملة من الفن، وذلك لأنه لا يملك القلب المضطرب والودود...

وغيرت الحديث وسألتها: هل من الممكن أن تتبدل فطرة الشخص وطبعه؟ هل نستطيع على حد قول "مادلن" أن ننزع أشواك عبادة المادة والتظاهر عن زهرة وجود "أليس"؟! فتألمت وقالت: "مادلن" بنت طيبة، أفضل من أن تفهمها فى هذا السن والعمر. قلت: ومن أين لك ألا تصبح "أليس" أيضًا يومًا ما بطبيعة "مادلن"؟ فقالت:

خسارة، لأن هذا الطبع وفطرتنا أمر خارج عن إرادتنا، و إلا فمن الممكن لأى شخص أن يبرئ نفسه من العيوب والنقائص. هؤلاء الذين يظلمون ويحقدون ويقسون، يعرفون أن كل هذه عيوب وهم يخفونها عن الأنظار، وينصحون الآخرين بالتقوى، لكن ما فائدة ألا يتحمل هؤلاء المسئولية عن طبيعتهم هذه؟ الشيء الوحيد الذى تغيره الطبيعة هو العمر والخبرة بشرط أن نبتهل إلى الله أن يهدينا إلى الخير والصواب.

فقلت: خيرًا، عامل السن والخبرة، فأنا متأكد أن فطرة "أليس" هى البساطة والخير، وأنها ستدع الهوس والعشق والتجمل من أجلى أنا.

ونهضت حتى لا أسمع إجابة تهز بنيان الأمل هذا فيهوى، فقبلت وجهها وذهبت.

***

فى تلك الليلة والغد حملنى صوت "مادلن" الملائكى فى النوم واليقظة من هذا العالم، وهى تقول: إن المرأة زهرة ويمكن أن ننزع كل الأشواك عنها بسهولة، إلى عالم الألحان التى كنا قد عزفناها، فكنت كلما نظرت إلى ذلك العالم البعيد فى الخيال، رأيته عالمًا سعيدًا موفقًا.

عصر الغد. ذهبت إلى نادى التنس بسعادة المنتصر، لكن "أليس" كانت لم تأت بعد. فبحثت عنها هنا وهناك حتى أعرف لماذا لم تأت اليوم ولا الأمس، فقالوا بل جاءت فى اليومين، وذهبت مع "هانرى".

لم يكن هانرى ثريا أو وسيمًا كى يسبب لى قلقًا، فهو يدرس الطب، والشىء الوحيد الذى يميزه عنى هو أنه ينجح كل عام ويكون أول الدفعة فى كل السنوات. لحسن الحظ كنت مطمئنًا إلى أن هذه الصفة لا تجذب مشاعر "أليس". مع هذا فقد تضايقت طبعًا من "أليس"؛ فلماذا تفضل التنزه مع "هانرى" على اللعب معى؟

خرجت من النادى، وعندما أردت أن أركب سيارتى ولا أعرف إلى أين أذهب، رأيت سيارة "أليس" الزرقاء بركن الشارع، فوقفت بجانب السيارة معتقدًا أنها وصلت حديثًا، وربما ذهبت لتشترى شيئًا من محل قريب وانتظرت. لم يمض وقت حتى وصلت سيارة "هانرى" وتوقفت قرب باب النادى، فنزلت "أليس" ودخلت النادى وقدمت "هانرى" لى وذهبت.

فدخلت أنا أيضًا النادى وراء "أليس" وكأن شيئًا لم يحدث، سأل بعضنا بعضًا عن أحواله وشغلنا باللعب. كنت أضع فى وجدانى نصيحة "مادلن" بأن المرأة زهرة؛ حتى أحتفظ بهدوئى وسعادتى. أحيانًا كنت أترنم بتلك المقطوعة التى كانت تعجب "مادلن" بلا مبالاة،

لكن "أليس" لم تنصت ولم تستحسن صوتى. عندما لعبنا دورًا واحدًا، ذهبنا وجلسنا على أريكة بجوار حمام السباحة. قالت: رأيت من بعيد أنك كنت تقف بجوار سيارتى، وأيضًا رأيت أننى جئت مع "هانرى" ولابد أنك سألت وعلمت أننى ذهبت للتنزه معه، فلماذا إذن لا تفضى بما فى قلبك؟ ألم أرَ كم يبدو عليك الألم؟

قلت: لا أتحدث لأننى أتمنى أن أنتزع بيدى ذات يوم تلك الأشواك التى تفسد كيانك. فضحكت بمرارة وقالت: كم يكون جميلاً إن تستيقظ من هذا الحلم والوهم، وترى الحياة بوضوح وتفهم ماذا يرضى المرأة ويسعدها. أنا أعترف لك أننى مغرمة بوجاهتك، لكنى لحسن الحظ لم أفقد عقلى تمامًا بسبب هذا العشق، وأعرف أن السعادة بالوجاهة وحدها لن تستمر طويلاً، فالجمال سرعان ما يصير عاديا، والعشق والهوس شىء يختلف عن الحياة. أنت لا تملك المستقبل المشرق، تفكيرك كله ينحصر دائمًا فى الألحان والأغانى والشعر والرسم، والأشياء التى تكون أساس سعادة الآخرين وشقاء الفنانين. صحيح أنك تدرس الهندسة، لكن أعلم يقينًا أنك لن تصل إلى شىء بما لديك من طبع شاعرى ولن تحصل على ثروة مطلقًا. "هانرى" ليس وسيمًا بالطبع لكنه يدرس بتفوق وهو عاشق للطب، ويشهد له الجميع بأنه سيكون أحد الأطباء العظام. عقلى يفضل قبحه على وسامتك أنت.

كأننى أسمع أبشع حقيقة، كنت مضطربًا مرتجفًا، وأعتمد على نصيحة "مادلن" وعزائها حتى لا أقع. ساد بيننا الصمت وكنا نفكر حتى أفاقنى صوت بكاء "أليس"، فأخذت يدها وقلت: تكلمى يا عزيزتى، لماذا تبكين؟ قالت: لا أعرف ماذا أفعل، فأنا معلقة بين العقل والقلب وأخاف أن أسقط فى النهاية فى هوة سحيقة. لا أعرف هل أحب الجمال أكثر أم الثروة والجاه. قلت: اتركى أنت نفسك لى وأنا أعدك بالسعادة، بحيث أرضيك وأسعدك بكل وسيلة. ففكرت وقالت: لا أصدق. ونهضنا وشغلنا باللعب.

***

شرحت لأمى ليلاً ما حدث وسألتها: كيف ينبغى أن تستخدم قوانين "مادلن" مع "أليس"؟ بمعنى أى وسيلة يمكن بها نزع كل هذه الأشواك عن هذه الزهرة؟ فابتسمت أمى وقالت: أنا لا أعرف، الأفضل أن تسأل "مادلن".

كان هدفها ألا أنفصل عن "مادلن" حتى أستطيع أن أقارن بين صفات هذه وتلك، وأعجب بإحداها. تتبعت هذا الأمر، كانت النتيجة هى أن اقترن وجودها بتفكيرى كوجود العينين فى وجه واحد. فلم أستطع أن أفترض وجود واحدة دون الأخرى، كانت "أليس" هى الجسم، و"مادلن" روحه. عندما ألعب التنس مع "أليس"، كنت أسمع كلمات "مادلن" العاقلة الودودة، وعندما كنت أسمع "مادلن" تعزف

البيانو، وأنا أقف وراءها أغنى، كنت أرى جدائل "أليس" الكثيفة وهى تتدلى على كتفها. فكنت أتخيل أننى أقبل كل خصلة شعر وأتأوه فى أغنيتى لكل خصلة وطُرَّة.

لم تكن "أليس" بالتى أستطيع أن أحكى لها عن شىء من حال قلبى، فحديثنا كان كالماء والنار. فى كل مرة أجد الفرصة سانحة لأعلن لها بلغة صفاء الحب والشعر والفن، لتدرك قيمة الحرية وعدم الحاجة إلى الجاه والثروة، كنت أحترق شوقًا أن تكون هى محبوبتى ورفيقتى، كانت تصب الماء البارد على نيرانى وتطفئها بسخرية واستهزاء. فإذا اتفقت معى لحظة ذات يوم، تختلف معى أكثر فى يوم آخر، وكانت لا تسمح بأى صلح أو انسجام إلا إذا استسلمت لها ووضعت جنزير عبادة المادة والمال برقبتى.

مع كل هذا كانت تحبنى وتترك "هانرى" وغيره ممن كانوا يطلبونها. أنا أيضًا لم أتحدث معها بكلمة واحدة عن "مادلن"، لأننى كنت أعرف إلى أى درجة هى أنانية وغيورة، حتى إنها كانت تتضايق عندما كنت أتحدث عن أمى.

وأما مع "مادلن" فكنت أتحدث... وكأن الله قد أرسل لى أحد ملائكته ليكون كاتم أسرارى، كنت أحكى لها كل ما حدث بينى وبين "أليس". وأبحث معها عن حيلة، كنت لا أرى فى عينيها شيئًا من

الشباب والغرور، وكم كانت تعانى من الخنجر الذى غرسته فى صدرها ولم تنطق.

ولو لم تكن طيبة "مادلن" وعظمتها ما استطاعت "أليس" أن تؤذينى هكذا، لأننى عندما كنت أجرح كل مرة بسببها، أجد العلاج بيد "مادلن"، كلما كنت أشعر باليأس من حب "أليس" ووفائها، كنت أذهب إلى "مادلن" أتخذ من ذلك الوجه الطلق والروح المتوهجة بكل الحب والمحبة والنصائح المخلصة، نموذجًا للتضحية والفداء والصبر والتحمل، وأتمنى أن تصبح "أليس" يومًا ما فى طيبة "مادلن" جزاء تحملى.

وبالمصادفة كانت كل من "مادلن" و"أليس" تحثنى على الاجتهاد فى المذاكرة، وكل منهما تتمنى أن أكون التلميذ الأول فى الفصل، حتى أستطيع أن أجد عملاً براتب كبير عندما أصل إلى نهاية فترة الدراسة. أنا أيضًا لم يكن لدى أى تقصير فى السعى والاجتهاد، لأنه كان هدفى الأول كى أحرر أمى من عناء العمل، وأوصلها إلى ما تتمنى وهو امتلاك مزرعة.

ذات يوم... وبمناسبة أننى كنت أحكى لـــ "مادلن" عن سوء حظ والدى وهزائمه، قالت: إن أمى شجعتنى على العمل فى المنزل منذ سن السادسة، وكانت تعلمنى الادخار والتوفير، فكانت تعطينى أجرًا كل يوم... وكنت أنا أدخر ذلك الأجر، علاوة على أننى أعمل

فى شركة... أعطى والدى نصف راتبى لنفقات المعيشة، وأدخر النصف الآخر. والآن لدى مبلغ مدخر ومستعدة أن أقرضك ما تحتاج إليه، تعيده لى عندما تستطيع من أموالك.

قلت: معاذ الله أن أقبل تضحية ولطفًا كهذا، يكفينى ما أعانى من عذاب بسبب الدين الذى علىَّ لك، ثمن تلك اللوحة. قالت: على هذا، فإذا كنت مكانك، أعيش بالأجر الذى تحصل عليه أمى، ولا أبيع تلك اللوحات الفنية النادرة. إذا تحملت أنت المصاعب فأنا متأكدة أن أمك لن تتحدث، لأن السيدة الفاضلة الماهرة تدبر الحياة بالقليل، ووالدتك من الفضليات.

نقلت نصيحة "مادلن" لأمى فأعجبتها، وفى الغد اعتذرنا للسيدة "جوستاو" وقمنا بتقسيم أعمال المنزل بيننا، كنا نأكل أبسط ما يكون، وتنازلنا عن كل ما هو غير ضرورى. وحتى الخطة التى كنا قد رسمناها لحفل عيد ميلادى، اختصرت على أثر هذا القرار، قلنا إن كل من يحبنا سوف يقنع بهذا التوفير.

حان يوم الحفل وذهبت لأستقبل "أليس" مع أبيها وأمها، ثم وصل عمى وابنه "ميشيل" بعد ذلك، رأيت أن عـين "ميـشيل" تلـمع لرؤية "أليس"، وذهب ناحيتها بجرأة، فسارعت وقدمت "أليس" لا إراديا على أنها خطيبتى، لكن "أليس" هربت بعينيها منى ولم أستطع أن أرى تأثير ذلك الإعلان عليها. فى تلك الأثناء دخلت

"مادلن" وأبوها، ووصلت جماعة أخرى من المدعوين، فقالت أمى: إن حفلنا هذا العام بسيط وغير مكلف، لكن لدينا فى المقابل "مادلن" التى ستعزف لكم على البيانو، وسوف يغنى "ويليام" من أجلكم.

فصفق الجميع وقمنا أنا و"مادلن" باللحن والغناء، غير أن "ميشيل" و"أليس" جلسا فى ركن، يتهامسان معًا بصوت منخفض، بينما التف الجميع حولنا، وأخذوا يمدحوننا، وعندما ينتهى اللحن، كانوا يطلبون منا لحنًا جديدًا. عندما ذهبنا جميعًا وجلسنا على منضدة الشاى كان الحديث إما عن عزف "مادلن" المؤثر أو عن غنائى. قالت أمى: لو أنكم سمعتم اللحن والغناء الذى تترنم به "مادلن" فى وجدانها فسوف تحبونها أكثر.

ماذا كنت أريد أكثر من صراحة أمى فى الإعلان عن رأيها؟ لكن عينى رأسى كانتا عاشقتين ومفتونتين بجمال "أليس"، حتى إنهما لم يدعانى أرى جمال روح "مادلن" بعين القلب.

فى تلك الليلة كانت "أليس" ترقص كثيرًا مع "ميشيل"، عرفت ولأول مرة ألم الغيرة، لأنها رغم كثرة من يطلبونها للزواج فإنها كانت لا تجد من بينهم وحتى هذه اللحظة من يخطب قلبها.

كان "ميشيل" يتفنن فى أسر قلوب البنات، أى أنه كان خبيرًا فى هذه الأمور أكثر منى. وكان يدرك بسهولة رغباتهن وأمانيهن، ويتحدث عن أملاكه بمبالغة وكذب، ويستعرض تلك الرغبة والأمنية

على من يأتى بها. لهذا كنت متأكدًا من أنه سيؤثر على "أليس"، لأننى كنت أعرف أن "أليس" ستفقد إرادتها أمام هذه الثروة والجاه. وكان أملى وعزائى الوحيد أن أُعرِّف "أليس" طبع الخيانة الذى يتمتع به "ميشيل"، وأقول لها: إن ابن عمى هذا قد خدع من أمثالك الكثيرات وتركهن.

وقد صدق ظنى، ذهبت فى الغد إلى نادى التنس، فقالوا إن شابا قد جاء واصطحب "أليس". شعرت بحالة لم أكن قد شعرت بها من قبل مطلقًا، قبض حلقى حتى إننى لم أستطع أن أحتسى جرعة واحدة من الماء مهما حاولت، وكانت عينى تترقرق بالدموع، لكن دمعة واحدة لم تذرف، وتجمدت ابتسامة جافة على فمى، فظل مفتوحًا ولا يغلق مهما حاولت.

أردت أن أحكى لأمى عن أحزانى، لكنى تخيلت من المقارنة بين "أليس" و"مادلن" أنها حكمت بالعدل ومعها الحق، فسعدت وانصرفت. أردت أن أذهب إلى منزل "مادلن"، كان هذا كأننى أطلب ملاقاة عـــدو! فذهبت إلى منزلنا وجلست فى حجرتى أذاكر. وكأننى لا أجيد القراءة، فلم أستطع أن أقرأ، أو مهما كنت أقرأ فلا أفهم، لم أحضر على مائدة العشاء بحجة أن رأسى تؤلمنى، خشيت أن أفقد أعصابى إذا واجهت أمى فيسيل دمعى وأشكو.

لم تأت "أليس" إلى النادى فى الغد وبعد الغد، كنت أزداد اضطرابًا كل لحظة. فى اليوم الثالث عندما ذهبت إلى النادى أخبرونى بأن "أليس" قد جاءت وتركت لى رسالة، فذهبت إلى ركن منعزل، وفتحت الرسالة بقلب ويد مرتجفين وقرأتها. كانت "أليس" قد كتبت:

عزيزى "ويليام" كان الذنب ذنبك، لماذا قدمتنى تلك الليلة على أننى خطيبتك دون علمى؟! إن زواجنا رغم ما لديك من مستقبل مجهول، وما لدى من عشق للجاه يعد جنونًا. كأنك تريد أن تجعلنى فداء لجنونك، أو أننى أريد أن أفنى العمر فداء لعدة أيام جميلة معك. هل يقبل العقل والإنصاف هذا الظلم؟ عندما أعلنت أننى خطيبتك دون مبرر، تضايقت وحزنت حتى إننى كدت أخرج من المنزل وأصرخ قائلة: ويليام يكذب! أدرك "ميشيل" حالتى، وسأل متعجبًا: منذ متى أصبحت خطيبة لـــ "ويليام"؟ قلت: أبدًا... قال: إذن نجلس ونتحدث، أريد أن أحكى لك الحقيقة. أراد أن يحكى لى عن فقر عائلتك، فقلت: أعرف. وأغلقت فمه، لأننى كنت أعرف والده اسمًا، إذ كان صديقًا لخالى، وأعرف ثراءه الفاحش. قال إنه رآنى فى حفلة فلان. فلان أفتتن بى، وكانت نيته أن يخطبنى فى أول فرصة.

أنت كنت تعرفنى وتعرف أن الحياة بلا جاه بالنسبة لى هى الموت، وقد كان، فوعدت "ميشيل" بالزواج فى الجلسة نفسها، أى أننى فى الحقيقة أشفقت عليك، ورفعت حمل وجودى الثقيل من على

عاتقك. بالطبع أنت متأكد من أننى مغرمة بوسامتك، وأننى أحبك بلاحدود، وكانت خسارة أن يضيع هذا العشق والحب بسبب مصاعب الحياة. رغم أننى لم أكن مادية، فإننا لم نكن نستطيع أن نحيا معًا سعداء؟ لأن رغباتك من المرأة كانت كثيرة جدا، فلم تكن تتمنى أن تكون زوجتك جميلة فقط، بل كنت تطلب أن تفهم زوجتك لغة الأمواج و صوت النسيم وتغريد الطيور، وتترجمها لك، وأصعب من كل هذا أن تتناغم الحياة بالشعر والموسيقى معك.

لماذا تبيع الجمال غاليًا هكذا، حقًا ! أخشى ألا تجد لبضاعتك مشتريًا بهذا الثمن، وتبقى لديك. لماذا لا تختار "ڤالنتين" أو "مارجريت" زوجة لك، فكل منهما عاشقة لك، ربما لم تكونا فى جمالى، لكن لحسن الحظ لم تكن واحدة منهن مادية وعابدة للجاه مثلى، وسوف تتفق معك بسهولة. وإذا كنت تستطيع أن تفضل الشعر والموسيقى على الثروة، فلماذا لا تتزوج "مادلن" نفسها التى تعزف البيانو بهذا الجمال، ورأيت فى عينيها أنها تريدك؟

أعتقد أننى سأتألم قليلاً لفراقك، لكنى سأتغلب على هذا الألم بقوة العقل والإرادة. أنت أيضًا ينبغى ألا تستسلم للحزن بشجاعة الرجال، لأن الرجل هو من لا يحزن من أجل معشوق تركه وذهب وراء رجل آخر، كثيرًا ما ستجد المعشوق فى هذه الدنيا، اختزل بعض أحلامك حتى تجد من تتناسب ظروفها مع حياتك. بكل أسف فإن ما خلق بكيانك إلى حد الإفراط، هو مشاعرك الرقيقة والأمانى

الكثيرة، أما ما لديك منه القليل عن الحد، فهو المنطق والتحمل، وأسوأ من كل هذا هو جمال الشكل والقد الطويل، الذى لا يدعك تعرف نفسك وتصلحها.

على أية حال، فأنا أتمنى لك السعادة، والآن حيث لا تستطيع أن تكون بطلاً وتدير فلك الدنيا حسب مرادك، فأنا أدعو أن تدور الدنيا بما يوافق أمانيك.

سأترك أنا نادى التنس، حتى لا يرى كل منا الآخر، وينسى عادات الآخر وأنسه بشكل أسرع، وأيضًا حتى تستطيع أن تأنس مع بنت أخرى بحرية سواء "مارجريت" أو "ڤالنتين".

صديقتك أليس

***

فضحكت بصوت مرتفع وقلت: "أليس"، اطمئنى فأنا رجل لدى الإرادة، ولا أحزن من أجل معشوق تركنى وذهب لآخر.

خرجت مسرعًا حتى منزل "مادلن"، لكنى لم أدق الجرس وعدت إلى المنزل. جلست خلف مكتبى، كأن المصباح لا يضىء فكانت حجرتى هكذا ضيقة مظلمة، فكنت أتنفس بصعوبة. كنت أسمع صوتًا مليئًا بالسخرية والاستهزاء، من كل كتاب، مشحون بالألم والكره. كانت الكتب تقول: أنت لست وسيمًا، أنت قبيح شرير،

والبنت الجميلة لا تحبك، وإلا ما تركتك "أليس" وذهبت مع "ميشيل"!...

نهضت ونظرت إلى نفسى فى المرآة، يا للعجب رأيت كم أنا كريه ومفزع، فعيناى كانتا كمصباحين نصف مضيئين فهى تعمى الأعمى، وجهى أصفر غائر كشمع احترق حتى الصباح، طُرَّتى معلقة على جبينى كالأفاعى السوداء الملتفة بعضها ببعض تقصد روحى... فاستدرت عن المرآة وصرخت قائلاً: لست أنا، هذا شخص آخر!...

أخفيت رأسى تحت الغطاء خوفًا من أن أكون قد جننت لاقدر الله، دخلت فراشى بملابسى وقلت لنفسى: ينبغى أن أكون رجلاً، فإذا كانت "أليس" واحدة ولا تريدنى فإن مائة أفضل منها يريدوننى... "أليس" هى تمثال جميل لكن لا يملك روحًا كى يطير معى، لا قلب لها كى يفيض ذوقًا وفنا. كم كان جميلاً أن حمل "ميشيل" هذا الحمل الثقيل عنى، دعهما يذهبان معًا ويشتريان الأشياء الثمينة كالسماسرة ويجمعانها. لو لم يسع شخص كـ"مادلن" لمشاهدة اللوحات الفنية فيمدحها سواء فى الصحراء أو فى الحديقة، ولم ير فى كل ركن فيها مائة حُسن، ولم يسمعه يتغزل فى كل جمال، أو يثمل من خمر العشق والفن، فما الفائدة لو أن لدينا أجمل اللوحات؟ لو لم يسمع أحد كـ"مادلن" أنين القمر الصامت ما استطاع أن يعزف البيانو مثلها برقة وعذوبة حتى وإن كان البيانو من أغلى الأنواع وأثمنها.

كم كان جميلاً أن سقط حجر وجود "أليس" الثقيل عن قدمي، حتى أتعلق بعد ذلك حرا خفيفًا في جناح روح "مادلن"، وأسعد دائمًا بالسير في السماوات.

لكن هذه الأوهام لم تستطع أن تخمد ثورة وجداني، فعلا النواح من كياني قائلاً: والله ليس هناك من هي بجمال "أليس" بين هذه البنات، لو أنها لا تريدك، فماذا حدث من غيرها...

عندما دقت أمي جرس العشاء، عرفت أنني بكيت فترة طويلة، ولابد أن عينيَّ قد صارت حمراء، وبدا مجرى الدمع على وجهي. كنت أتمنى ألا تعرف أمي أنني بكيت لأنها كانت قد قالت لي عدة مرات: "والدك كان يكره الشكوى والبكاء والضعف والعجز وعليك ألا تبكي مطلقًا حتى لا تتضايق روحه منك".

غسلت عينيَّ جيدًا قدر ما استطعت، ونزلت درجات السلم شاحب اللون، لكني كنت أشعر أن وجهي مليء بالأنين والبكاء. قبّلت وجه أمي البشوش وجلست على المنضدة، لكني لم أجرؤ على الكلام خشية أن يقبض صوتي ويسيل دمعي. نظرت إليَّ متحيرة للحظة، وانفتح فمها وعيناها من التعجب والدهشة، لكنها لم تقل شيئًا ورفعت عينيها عني.

الشخص الوحيد الذي كان يستطيع أن يضع البلسم على جراحي، يجلس أمامي. لكن في الخيال، كنت أرى والدي وقد جلس

فوق المنضدة بشكله الهادى الوقور يراقب ابنه، كى لا يبتعد بوجهه عن مرآة الرجولة ويشكو، فكنت أصرخ فى قلبى قائلاً: يا أمى اسمعى صراخى ألا ترى حالى!

لحسن الحظ دق جرس التليفون، تصورت أنها "أليس" وقد ندمت، فأخذنى الغرور ولم أهتز من مكانى. نهضت أمى مضطرة وذهبت إلى حجرة التليفون، فسمعتها وهى تقول: "حالته جيدة... أتعجب... ينبغى أن أسال... أشكرك جدا..."

عادت وجلست وقالت: إن "مادلن" كانت تسأل عن حالتك، تقول "إنها لا تعرف عنك شيئًا منذ بضعة أيام"، فلماذا إذن لم تخبرنى أنك لا تذهب إلى منزل "مادلن"؟

كانت رأسى لأسفل وكنت أفكر، بم أجيب؟ قالت: واضح أنك مضطرب وتتألم، لماذا لا تتكلم؟ إننى سأحزن جدا إذا علمت أنك لم تعد تعتمد علىَّ بعد... قلت: سامحينى، كنت أتصور أننى إن حكيت لك ما حدث، تتصورين أننى أشكو؟ الحكاية هى أن "أليس" تركتنى وذهبت مع "ميشيل"...

شرحت لها بالتفصيل كل ما حدث وقلت: تكلمى يا أمى الحبيبة، ماذا أفعل الآن؟

فاضت عيناها بالدموع وقالت: خسارة، لأن الله تعالى نادرًا ما يجعل الجمال والخير فى أحد عباده، ولا ينبغى أن يضيع العمر

الثمين هباء فى البحث عن ذلك الشخص الذى يجتمع فيه الاثنان معًا. كم كان جميلاً أن تركتك "أليس" سريعًا، ولم تجر وراءها أكثر من هذا. الجميع يعرفون أن الرفيق الطيب هو أساس الراحة والسعادة فى هذه الدنيا، وليس الشكل الجميل، وفى النهاية يُخدع الكثيرون حين يعتقدون أن كل من كان جميلاً يكون أيضًا ودودًا ووفيا ومنسجمًا، أى أنهم يرون الطبع فى الشكل، ويخطئ من لا يعرف أن كثيرًا من الأشواك القاتلة تختفى وراء هذه الورود الجميلة. لم أر مطلقًا أن جمال الشكل يحل محل الطبع ويصبح أساسًا للسعادة، لكن ما أكثر ما يحل جمال الخلق والقلب العطوف محل جمال الشكل .

قلت: هل تعتقدين أن "مادلن" تستطيع يومًا أن تحل محل "أليس" فى عينى؟ قالت: أنا متأكدة أن "مادلن" الآن هى أجمل من "أليس" بعين قلبك؟ إن عين القلب هى كل ما يقودنا نحو السعادة. وليست عين الرأس.

قمت وقبلت أمى من السعادة، وقلت لها: إذن فأنت بهذا تعتقدين أننى أحب "مادلن"؟ فابتسمت فى شجن وقالت: اسأل قلبك.

اتصلت تليفونيا بـــ"مادلن" وأخبرتها بأننى سآتى لرؤيتها عصر الغد.

***

رغم أننى قضيت اليوم كله فى تصور أننى أنزع عن "أليس" كل مميزات الجمال والقد والفتنة الواحدة تلو الأخرى وأمنحها لـــ"مادلن"، ثم نزعت أواصر محبتها من قلبى، فإن قلبى كان يطلب منى باكيًا أن أكتب رسالة إلى "ميشيل" وأودع "أليس" لديه.

فكتبت:

"ميشيل" ابن عمى، أنا متأكد أنك لا تدرى شيئًا عن الذنب العظيم الذى اقترفته، والنار التى أشعلتها بروحى؛ لأننى أعرفك وأعرف أنك لا تؤمن بمشاعر القلب وتعتبر أن العشق لعبة، لهذا فأنا أتحمل نصف وزرك الخفى، وأغفر لك النصف الآخر بشرط أن تسعد عزيزتى "أليس". أنا لم أستطع، وأنت تستطيع أن توصلها إلى ما تتمنى، خسارة أن يتحسر قلب "أليس " فينعكس ذلك على الوجه، فإذا كنت لا تحبها، وبالتأكيد لا تحبها فارفق بهذا القلب وذلك الشكل، من أجل عبادة الجمال وحبا للفن. ألا يوجد من يعلقون جوهرة ثمينة فى حلقة جميلة، ومن يضعون لوحة فنية فى إطار مزين بالنقوش والذهب، ومن يشيدون القصر العالى فى جنة مزينة؟ أنت أيضًا علق هذا الجمال الآسر لـــ "أليس" بين أمانيها ورغباتها كالقمر بين النجوم، ثم اجلس وانظر كم تكون جميلة عندما يسعد قلبها وينسجم مع وجهها، سأكون شاكرًا لك طول العمر.

ويليام ابن عمك

***

لم أعد أذهب إلى النادى أبدًا، حتى لا أشعر بفقدان "أليس"، كنت أقضى عصر كل يوم مع "مادلن" فى الموسيقى والمناقشات الفنية، أبلغتها خبر خطوبتها لـــ"ميشيل" ولم أبد أى تأثر. لكن كان يبدو من إشاراتها عندما تتحدث أنها تطلع على ما بقلبى، فكانت تقول لى مثلاً: الجميلات فى الدنيا كثيرات، ولا ينبغى الحزن على أى منهن. أو كانت تقول: إن لم يختر الإنسان شريكه كما يحب ويتمنى فهو شقى تعس...

ذات يوم كنا نتحدث عن أمى، وسألت: ماذا تفعل هى وقت العصر؟ ومع من تقضيه؟ قلت: تقوم بأعمال المنزل وحدها.

فاحمر وجهها وقالت: لو كنت أعرف؟ ما كنت أوافق مطلقًا أن آخذك منها كل يوم. ما العيب فى أن تكون هى أيضًا معنا!؟

نقلت لأمى هذا الكلام، فكانت "مادلن" بعد ذلك تأتى إلى منزلنا يومين أسبوعيا، كنا نحن نذهب إلى منزلها يومين أيضًا، فى ذلك اليوم الذى كانت تأتى هى كنا نقضى الوقت فى الغالب فى المناقشات الفنية والحوار، وقد ارتبطت بأمى و"مادلن" وكأننى لم أستفد من أى معلم أو كتاب، كأنهما يلقيان بالنور من الناحيتين فيضيء كل ركن مظلم، ويحل كل مشكلة ولغز. وكأن سحر روحهما قد حول الصحراء المحرقة الجافة إلى روضة غناء، وبدت الدنيا كلها

أمام عينى ورود بلا أشواك، فالذنوب كلها تغتفر، والأشرار صاروا من الأخيار.

كنت أتحرر من قيود الغرور والغلظة المحرقة، ويصفو خاطرى بفضل تلك المجالس وتلك الأحاديث الممتعة. كنت أرى طائر روح "أليس" وقد حلق فى عنان السماء وهو أكثر توهجًا وجمالاً وأخذ يشدو ويقول: اغفر لى كل ذنب، ألا تحب كل جميل؟ أنا أيضًا أحب كل ما هو جميل. كنت تقول: إن محبوبك ذو روح، إذن فاطلب من قلبى أن ينفث من روحه بكل ما هو جميل ويجعله صاحب قلب وروح وجدير بالعشق...

ورويدًا رويدًا... كان كل ما هو جميل ومرغوب يدفعنى إلى ذكرى "أليس"، وكان ظل وجودها يسيطر على أحوالى وأفكارى دون إرادة منى. كنت أرى "مادلن" فى جمالها وأسمع من نغمة صوتها روح "أليس" الجذابة. عندما كنا نجلس ونتحدث أنا وأمى و"مادلن" كانت "أليس" تطل على مجلسنا فجأة كالقمر المضىء، فيأسرنى طويلاً عن ذلك المجلس.

استمر هذا الحال وهذه السعادة مدة عام، كان جل خوفى من أن تصيبنا عين السوء. إذا كانت "أليس" تزداد عفة وجمالاً فى نظرى كل يوم، فقد كانت معرفتى أيضًا تزداد كل يوم بسمو "مادلن" وجمال

روحها، لأن أمي كانت تترجم وتشرح لي أخلاق "مادلن" الملائكية وكأنها كتاب لم أفهمه جيدًا.

مع هذا فأنا لم أتحدث مطلقًا مع "مادلن" عن الحب والزواج. لكن عندما كانت نظراتنا تتلاقى أو عندما كنا نعزف لحنًا، يكون غزلاً عن العشق والحب والصداقة والوفاء، فربما كانت قلوبنا تختلي بعضها ببعض في غفلة منا، ويبوح كل منهما للآخر، بحيث لم نكن نتمني من هذه الدنيا سعادة وسرورًا أكثر من ذلك، وألا نفقد هذه الحالة. لكن في تلك الأثناء امتدت يد الزمان لتهدر سعادتنا هذه.

والد "مادلن" الذي يستفيد من كل شيء بل من كل خطوة وكل نفس، لم ينس ابنته أيضًا، فقد جاء إلى حلقة الغناء والموسيقى عدة مرات، وجلس بوجه عبوس ثم ذهب. كنت متأكدًا أنه لا يحبني لأنني فقير، خاصة وأن حقده عليَّ قد استقر بقلبه منذ أن اشترت "مادلن" لوحة الراعي منه وأهدتها لي. لكنني كنت كالمسافر الذي يرى الغمام الداكن، لكن عليه أن يواصل سفره مضطرًا، ولم أعِره أيَّ اهتمام حتى كنت في منزل "مادلن" ذات يوم، فدخل ومعه شاب قدمه إلى "مادلن" باسم "موريس"، قال: إن هذا الشاب مع صغر سنه، فقد أتم تعليمه في الاقتصاد ولديه في التجارة تجارب أكثر منا، رغم سنوات خبرتنا.

كان واضحًا من نظرة الاحتقار التى رمقنى بها، أنه يقول لـــ"مادلن" شاهدى وقارنى، فهل من الأفضل أن أنهض، أو تختارين أنت؟!

فغاص قلبى، لأنه فضلاً عن مميزاته هذه، فقد كان أطول منى وأقوى. وبعد أن عدد والد "مادلن" بعض أعمال "موريس" المشرفة فى مجال التجارة، فقد شجع الشاب على الغرور وطلب من "مادلن" أن تعزف على البيانو، بعكس المرات السابقة حين كان يبدى عدم ميله للموسيقى.

كنت أعانى من الهزيمة التى لحقت بخيالى من "موريس"، كنت متبرمًا ولا طاقة لدىَّ للقراءة. أعرف أننى لو قرأت وأنا على هذه الحالة فسوف أصاب بهزيمة أخرى. وبينما كنت أعانى من الشك والفكر، نهض "موريس" ووقف خلف "مادلن" وشرع فى الغناء. فكان صوته أقوى من صوتى وأجهر فسحقنى تمامًا. كنت أسمع ملامة من كل جملة موسيقى يتفوه بها "موريس"، كان يقول لماذا لم تخطب "مادلن" إلى الآن. ما سبب كل هذا التأنى؟ هل تنتظر إلى أن تصبح "مادلن" بجمال "أليس"؟! أم تنتظر أن تعود "أليس" نادمة وتخر على قدميك؟ أو تصبر حتى آتى وأخطب "مادلن"؟! والآن.. ما حيلتك فى مواجهة منافس مثلى، وأنت عاجز خجول؟!

خسارة لأن أمى لم تأت إلى منزل "مادلن" مرة أو مرتين، بحجة ضغط العمل. وإلا ما كنت أنا هكذا عاجزًا مسكينًا إلى هذه الدرجة اليوم.

كنت لا أغنى أبدًا بعد أن غنى "موريس" مهما أصروا على ذلك، لأننى كنت أعرف أن صوتى سيكون ضعيفًا مرتجفًا.

عدت إلى المنزل بروحى المتعبة، حكيت لأمى كل ما سمعت ورأيت من "موريس"، بالطبع لم أعترف لها بهزيمتى، لكنها أدركت ذلك بعد عدد من الأسئلة والأجوبة، قالت: ماذا يقلقك إذا جاء شخص آخر وأخذ "مادلن"، أنت الذى لا يعجبك شكلها أو قوامها؟ فقلت: بالفعل هو كذلك.

لكن علا صياح بداخلى يقول: ألا تفهم ما تقول. لا... ليس كذلك.

***

حملت هذا الصخب معى إلى الفراش حتى يحملنى على النوم، لكن الشىء الذى لم أجده فى فراشى هو النوم. بعد فترة صراع بين العقل والقلب ظهر بسماء خاطرى جمال "مادلن" كالقمر المنير، وكان وجهها مزدانًا بزينة العقل، اللطف والوقار والهدوء والجمال، فبدا أجمل من كل الجميلات. قلت: أنت أجمل من "أليس"، أنت روح من الرأس إلى القدم. لقد خلقت روحك أجمل من كل وجه

جميل فى رحاب خلقه، خسارة فإن بصيرتى كانت عمياء، فلم تر كل هذا الجمال.

حقا لم أكن أرى حتى جاء منافسى، وسلب منى قمرى كالغمام المظلمة. واحسرتاه، لماذا لم أعرف قبل ذلك أننى أحب "مادلن"؟! ألم أذهب معها إلى متحف... ذلك اليوم، وكنت قد وقفت أمام ذلك القفص الصينى أشاهد وأمدح. لم تقل "مادلن" أن هناك شيئًا أجمل من ظاهر ذلك القفص الذى لا يبدو لأعيننا، وتلك الروح الرقيقة وجمال الصنعة الصينية. بدت روحها فى قفص وجودها، عندما سمعت من "مادلن" هذه النقطة، عندئذ رأيت أن جمالها أجمل من كل الوجود، فلماذا إذن لم أقبل يدها ولم أطلب الزواج منها!؟

تضايقت من هذا الخبط وهذا الجرم، ومن تصور أنه ربما تكون الفرصة لم تذهب بعد، فوقعت فى الخيال مع "موريس" فى صراع، وقلت: إذا كنت أنت أطول منى فأنا أجمل منك. وإذا كان صوتك أقوى فأنا صوتى أكثر جمالاً وعذوبة؛ فلماذا كل هذا الخيلاء بخبرتك ولياقتك، ألا تعرف أن "مادلن" لا تحب الغرور؟ ما هذا الغباء الذى أظهرته عندما كنت تتحدث عن قيمة السجادة الإيرانية، وبدلاً من أن تتناول فى حديثك تلك النقوش والرسومات الدقيقة المستوحاة من الأفكار الإيرانية القديمة التى تأسر الألباب، يكون رأيك أنه حديث وجذاب، ثم أخذت تتحدث عن قيمة السجاد الإيرانى

فى لندن وباريس ونيويورك، ألم تر "مادلن" وقد نظرت إلى الأرض للحظة، ولم تقل شيئًا!؟

أثناء الصراع مع "موريس" غلبنى النوم، وفى الحلم رأيت أن "مادلن" قد انحازت لى وكانت تقول: لن أنسى ذلك اليوم الذى كنا فيه فى معرض ذلك الرسام، وقد شغلنا بمشاهدة اللوحات الفنية وكنا نقدح ونمدح فقلت لى أنت "لماذا كتبوا قيمة كل لوحة أسفل منها؟ ألا يعرف هؤلاء أن الفن إذا وضعت له قيمة كان كالبنت الجميلة التى تطلب لنفسها ثمنًا! فتسقط دفعة واحدة من السماء إلى الأرض؟" لقد استمتعت بذكائك، وضحكت تلك الضحكة التى تبرز غمازتَىْ وجنتَىَّ وكنت أنت تحبهما... صحيح أن والدى قد أعجب بـ"موريس" لأنه ثرى، لكنى أريدك أنت يا من لا تعرف شيئًا عن الربح والنقود، أريدك أنت يا من قلت فى ذلك اليوم وفى متحف ... بعد شرح تلك اللوحة الجميلة: "إن روحى تحلق فى عنان السماء لشرحك، وتتنقل بين الأغصان والأوراق مع طائر روح الرسام وتشدو معه، وتدرك حال قلبه وتعرف ما لديه من عشق وأمنيات" فضحكت أنا مرة أخرى ونظرت أنت إلى وجنتىَّ. متى يستطيع "موريس" أن يسلبنى ابتسامة مثلك؟ وأنّى له أن يفهم معنى ابتسامتى ويسعد بغمازتَىْ وجنتىَّ!...

فقلت: يا ملاك الخير، يا "مادلن" جميلتى، لو لم تعيدى لى قلبى الضائع مرة أخرى بهذا الكلام، ولم يصلنى المدد منك، لكنت أهزم من أول مرة أواجه فيها منافسى وأهرب. لكن الآن وقد منحتنى

الجرأة والشجاعة، سأذهب [illegible] غدًا لخطبتك ولن أخاف [illegible] أبيك أو "موريس".

***

استيقظت صباح الغد سعيدًا مسرورًا بهذه الرؤيا الملائكية، وزينت نفسي لأذهب وأبشر أمي بهذا القرار. أردت أن أفتح الباب، فوقعت عيني على المرآة الضخمة التي تغطي باب الحجرة كله من الداخل، وشاهدت نفسي، واحسرتاه، لم أتضايق رغم كل هذا الجمال والحسن عندما رأيت "مادلن" وقد وقفت بجواري في الخيال. وغضبت أنه لماذا أكون أنا أجمل منها كل هذا؟!

تنبهت فجأة إلى أن هذه المرآة نفسها هي التي كانت تمنعني كل يوم طريق السعادة، أدركت أنني كنت أرى نفسي فيها كل صباح ومساء، فكأن شيطانًا بهيئة إنسان يقول لي: " ألا ترى وسامتك وحسنك النادر؟! أليس من الخسارة أن تضحي بهذا الجمال لمخلوق أقل منك؟! حذار أن تسلم هذا الحسن والجمال إلا لشخص يكون قرينًا لك في الجمال والفتنة..."

خسارة لأن الجمال هو الوحش الفتاك الذي يسرق سعادتنا! فصرخت قائلاً: أيتها المرآة المغرورة لن أخدع أكثر من هذا بسببك، ولن أبقى في شركك، سأذهب وأشاهد الجمال بعد ذلك في روح "مادلن".

وفتحت الباب وأغلقته بسرعة ولجأت إلى أمي من المرآة.
قلت: أمي الحبيبة، لقد قررت أن أحقق أملك بخطبتي لـ "مادلن".

كنت أتوقع أن تسعد وتقبل وجهي وتبارك لي، لكنها فكرت قليلاً وقالت: تكلم. لا أعرف ما الأوهام التي دفعتك لاتخاذ هذا القرار؟!

حكيت لها كل ما مر بخيالي وماذا دار في الحلم بخاطري، حتى حديثي مع المرآة، فقالت: لا يعجبني هذا القرار لأنه لن يصل بك إلى السعادة.

تحيرت وتأملتها بدهشة، قالت: لهذا لم يعجبني القرار، لأنك لست في حالتك الطبيعية وتحترق بنار الغيرة. أنت لا تريد "مادلن" للحب والرفقة، بل تريد أن تخطفها من يد منافسك. نعم ففي رحلة الحياة تكون حاجتنا أشد للصداقة والرفقة، ينبغي أن يكون رفيق هذا الدرب ودودا طيبا ملائمًا. كل هذه الصفات تجتمع في "مادلن" لكن قلبك الغض لم يصل بعد إلى هذه الحقيقة، ولم يدرك هذا الاحتياج. إن رغبتك هذه وحرقتك وليدة المنافسة، ونار الغيرة سرعان ما تخمد بعد الفوز والنصر. الآن انظر لو أن شعورًا آخر غير المنافسة قد دفعك إلى هذا القرار، فلن يكون لي شأن، لأنني لم أعرف من هي أفضل من "مادلن"، وإلا فهذا الملاك لا يستحق أن يكون ضحية جنون الغيرة وهوسها.

اضطرب وجداني لهذه النصيحة، ولكى أختصر هذا الحديث قلت: إن وجود "موريس" لم يكن هو الباعث على العشق والرغبة لديَّ، لكن نتيجة هذه المنافسة، أنه مزق اللوحة التى كانت بوجدانى، والتى كانت مليئة بالنقوش والآمال، وأظهرت أمام عينى جمال "مادلن".

نهضت وقبّلت وجهها، أردت أن أذهب إلى الكلية فقالت: لك رسالة كانت فى الصندوق فأخذتها ووضعتها على منضدة الفناء.

تأكدت أن "مادلن" تستهزئ بى فقبض حلقى من السعادة. لكنى نزعت المظروف ورأيت أنه ليس خطها! أردت أن ألقى بها وأذهب، فقال الخط كنت تعرفنى!

فتحت المظروف بسرعة وألقيت نظرة على الرسالة كلها. فإذا بها تحمل توقيع "أليس" فكأنهم أغلقوا أمامى جنة وجود "مادلن" فجأة، أو... أنهم أنقذونى من الوقوع على حافة هوة سحيقة. وكأننى قد صعقت بالكهرباء، فكنت أرتعش من ملامسة رسالة "أليس". كتبت رسالة تقول فيها:

عزيزى "ويليام"، كنت أعرف من البداية وفهمت أكثر أنك حبيبى من هذا العام الذى قضيته بعيدة عنك، لقد أعطانى "ميشيل" الرسالة التى كنت قد كتبتها له، لكن أتعرف متى؟ بعد سبعة أشهر عندما ملَّ منى وأراد أن ينتزعنى من رأسه.

كم بكيت أيامًا ولياليَ عندما كنت أقرأ تلك الرسالة، وفى أحوال مختلفة. فكنت أحيانًا أبكى على طيبتك وأحيانًا على سذاجتك، وأحيانًا أخرى كنت أصرخ قائلة: لماذا لا تعالج كل هذا الضعف والنقض الذى لديك لِم لمْ تكن ذلك الذى أتمنى؟! ألم تكن تحبنى وتعشقنى! فبقوة العشق تستطيع أن تعمر الصحارى والغابات، وتستطيع أن ترفع جبل عن مكانه، ألا يمكن للروح التى تحلق فى السماء أن تهبط إلى الأرض وتعرف الحقيقة! ماذا أفعل؟ رأيتك تنسج الوهم والخيال عندها انتزعت قلبى منك وذهبت مع "ميشـيل" بلاوعى.

هو على العكس منك وكما كنت أريد، فكل تفكيره فى العمل والجد. كما تعرف فهو يعمل بعدة جهات وموفق فيها جميعًا، تأكدت أنه سرعان ما سيصبح أغنى من والده، لكن خسارة لأنه لم يكن يعرف العشق ويعتبر أن شئون القلب هى أيضًا جزء من الماديات، وكأنما لا ينبغى أن تطلب الأشياء المعنوية من الرجل المادى. خطأ، لقد كان أبى وأمى كلاهما ماديا، وكان كل منهما يحب الآخر إلى درجة العشق. لكنى لم يكن لدىَّ حظ.... فـ"ميشيل" كان يتصور أو يعتقد أننى جماد بلا روح، يستطيع أن يستفيد منى ماديا، أى كالرمان يمتصه ويلقيه بعيدًا. لعب بى بضعة أشهر حتى أدرك فى النهاية أننى لا أبيع إلا بالعشق، فى النهاية يكون العشق الذى يزينه الذهب

والجاه. عندما أدرك أننى لن أسلِّم إلا بالزواج أعطانى رسالتك ومدحك كثيرًا أدركت مقصوده وانفصلنا بعضنا عن بعض.

فى تلك الأثناء كنت أرى أن علاج آلامى الوحيد هو أن أتى وأركع تحت قدميك، لكنى صارعت الأوهام يومًا أو يومين وفى النهاية تفوقت عليه، لأنك إن كنت رأيتنى هكذا مهزومة فلن تأخذنى مطلقًا، وأيضًا إذا لم يقل عشقك، فبالتأكيد سيقلل من الاحترام الذى كنت تكنه لى لحسن أخلاقى.

لكن هكذا، وبعد عدة شهور، وعندما خلصت نفسى من ألم الهزيمة وحزنها، وتحررت كسابق عهدى وصرت مرفوعة الرأس حرة، أستطيع أن أراك وربما أنسى ذلك الماضى الملىء بالعشق والمحبة... فهل يمكن أن تصلح من شأن نفسك أنت أيضًا؟!

سأعود بعد خمسة عشر يومًا الساعة... يوم... إلى نادى التنس فتعالَ أنت أيضًا.

صديقتك أليس

***

قام إعصار بوجدانى من قراءة هذه الرسالة، تلاطمت أمواج تفكيرى بعضها ببعض، وأخذت تزأر ولم أكن أصل إلى إحداها حتى تحل أخرى مكانها.

أثناء ذلك الاضطراب والصراع كان كل ما يدور في تفكيري هو نصيحة أمي التي تقول: "ألا يكون قرارك بخطبة "مادلن" ونبذ الصراع مع "موريس"!!

وقف هذا الفكر أمام عيني كثيرًا وكرهته، ثم جاء واستقر بقلبي بالتدريج فصدقته. كان صوت خفي يهمس في أذني قائلاً: إن "أليس" مغرمة بك وعاشقة لك، وإلا ما تذرعت بحجة وتركت "ميشيل"، خسارة أن الشخص الذي يتمنى "أليس" تلك القمرية الوجه، عليه أن يحترق بنار المنافسة مع "موريس"، ويضيع عمرًا في هذا الخطأ.

عاد ذلك الصوت وأراد أن يقول شيئًا آخر، ويجعل من "مادلن" مذنبة، ويتحدث عن الأمل لكني جعلته هو المخطئ ولم أنصت له.

في ذلك اليوم عدت إلى المنزل مبكرًا، وطلبت من أمي أن تجلس للحديث قبل العشاء. وافقت وجاءت إلى حجرة الطعام.

كان التعب يبدو عليها ولونها مكفهر. سألتها عن حالتها. فقالت: ليست سيئة.

أدركت أنها فكرت كثيرًا في هذه الليلة واليوم في مشكلتي حتى تعبت، فأعطيتها خطاب "أليس" قرأته ثم أعادته لي. سألتها: أيهما تختارين "أليس" أم "مادلن" إن كنت مكاني؟ قالت: إن كنت

مكانك، أتمهل حتى يكون قرارى عن تجربة طبيعية وبلا تسرع. قلت: أيهما تعجبك أنت؟ قالت: خلقت "مادلن" للمحبة والهدوء، و"أليس" للعشق والفتنة! لكنى وبعد عمر من التجربة أفضل الهدوء أكثر من الاضطراب والفتنة.

قلت: كان ينبغى أن تكتب لى "مادلن" بدلاً من "أليس"، ألم ترَ تعذبت لمجىء "موريس"؟ إذن فلماذا لم تتودد لى بالتليفون على الأقل وترفع هذا الحمل عن مشاعرى؟! لكن معها حق، لماذا لم أتقدم أنا لخطبتها فى هذه الفترة الطويلة!؟ صحيح كنت أعتقد أن تلك النظرات المليئة بالحب، تلك الألحان العاشقة التى كانت تذيب القلوب وتسيل الدموع بعيوننا، هى أفضل ترجمان لمشاعرنا، وهى الواصلة لعهد الوفاء بيننا، اتضح أننى كنت مخطئًا.

فضحكت بحزن وقالت: هذه ليست لهجتك الطبيعية، فلو لم تكتب "أليس" هذه الرسالة، ما كنت تتحدث عن "مادلن" بهذا الكلام.

صمتُ خجلاً، وصمتنا لحظة. سألتها: فيم تفكرين؟ قالت: خسارة أنك لم تعرف "مادلن" ولم تستمتع بروحها الفياضة، فهى بحر واسع. لكنى لم أشبهها جيدًا فالبحر يهيج بفعل الرياح!، "مادلن" هى جبل فوار يبدو من الخارج هادئًا باردًا، لكنه من الداخل يغلى ويضطرم. إن كنت قد عاهدتها بكل لغة، فقد وثقت عهدك مع جبل راسخ، وإن نقضت أنت العهد فلن تنقضه هى.

ارتفع النواح بكيانى قائلاً: ليت هذا الطبع كان لــ "أليس".
رأت أمى ما أعانيه من عذاب، فقالت: تواجهك مشكلة فى هذا الموضوع، إن قلبى يحترق لحالك، فلماذا ترى كلاً منهما ملجأ وملاذًا... "أليس" تهرب سريعًا من الحزن وتفكر فى طريقة أخرى لسعادتها، و"مادلن" تتحمل عبء كل حادثة وألم دون شكوى كالجبل الراسخ. لكنك فى هذا الصراع كالسفينة التى لا دفة لها. قلت: لماذا لا تكونين أنت ربان السفينة؟!

ابتسمت بمرارة وهزت الرأس بحسرة ولم تنطق بشيء، لو أنك لم تعرف رأيى وقرارى بعد كل هذا الأخذ والرد... فهذا دليل على أن السعادة لا تتأتى بالنصيحة. وما تأثير كلامى...

قلت: أمى الحبيبة ماذا أفعل حتى لا تنفصل "أليس " و"مادلن" بعضهما عن بعض فى خيالى؟! قالت: اصبر حتى يمضى الزمان ويجمع بينهما.

***

كلما كان يقترب موعد لقاء "أليس"، كنت أحرر نفسى أكثر من قيد "مادلن"، وأقول لنفسى: إن هروب فتاة بجمال "أليس" من قبضة منافس مثل "ميشيل" بكل ما لديه من ثروة ولباقة ومهارة... وتلقى بنفسها إليك! فلماذا تحزن بعد ذلك من منافسة "موريس" وفقد "مادلن"؟

لم أتحدث بكلمة واحدة مع "مادلن" عن "موريس"، وكنت أعاملها برقة أكثر من المعتاد، لأننى سعيد الوجدان مسرور بخيال "أليس"، لكن أمى تبدو أمامى متعبة، وكثيرًا ما كانت تدخل حجرتها بعد العشاء مباشرة. وكنت أحكي لها حقيقة حالي وأحيانًا كنت أبالغ، لتصور أنها تتألم لعذابي، وكنت أحيانًا أظهر سعادتى وسرورى... لكن ما الفائدة إذا كان ألمها وتعبها يزداد يومًا بعد يوم.

لسوء حظي كنت أنا أفكر هكذا فى المستقبل والنجاح، مرض أمى فى نظرى أمر سهل هين، خاصة تلك الأيام القليلة الأخيرة التى ابتعدت فيها عن "أليس"، كنت كالمسافر الذى يضطرب ويثمل وينطلق فى كل خطوة... يقترب بها ناحية محبوبة، كما كنت أعامل "موريس" حين كان يحضر مجالس الطرب والغناء باستمرار بمنزل "مادلن" بكل احترام، من منطلق شخص منتصر يتعامل مع الآخرين بشهامة وتسامح.

ذات ليلة كان من المقرر أن تأتى "مادلن" إلى منزلنا لكنها تأخرت، كانت أمى قلقة فضحكت وقلت: لابد أنها مشغولة مع "موريس".

فرأيت فى وجه أمى أنها لا تقبل منى هذه القسوة وسوء الأدب. فنهضتَ واتصلَت تليفونيا بـــ"مادلن"، وعندما ذكرت اسمها

وسمعت الرد، تجمدت في مكانها. فقلت: تكلمي ماذا حدث؟ فتأوهت وقالت: لقد توفي والد "مادلن".

فألقى كل منا الرأس لأسفل وساد بيننا الصمت لحظة ثم ذهب كل منا إلى حجرته، بكيت من تصور حزن "مادلن" وألمها، لكن سرعان ما اطمأن خاطري بهذا العزاء، وهو أنها إن كانت قد فقدت والدها، فإنها في المقابل سترث ثروة كبيرة، وستنسى أحزان وفاة أبيها سريعًا وستعيش في سعادة وسرور.

استنتجت ضمنًا من هذا الاستدلال أن "مادلن" لا تحتاج لي، وهي تدعو الله أن أتركها، فسلمت أنا أيضًا نفسي لـ"أليس" دفعة واحدة واسترحت.

في الغد ذهبنا أنا وأمي إلى منزل "توماس" وشاركنا في تشييع جنازته، كان "موريس" يقدم خدماته في كل مكان وكأنه أحد أفراد الأسرة.

بينما كانت "مادلن" تبدو هادئة كالعادة وقورة، لو أن شخصًا لا يعرف الخبر ما كان يرى آثار الحزن عليها.

اعتبرت هذا البرود دليلاً على عدم محبتها، وجرمًا آخر في حقها، وقلت لأمي ذلك. مسحت دموعها وقالت روح أصيلة، لا تبدي ألمها وحزنها للآخرين، لكنني أعرف أنه عندما ينام الجميع،

ولا يسمع نواحنا ولا يرى سيل الدموع المحرقة إلا الله، كم ستكون حرقة تلك المسكينة لفراق عزيزها وكم ستبكى.

عرفت أن هذا هو شرح ما حدث لقلب أمى، أدركت كم بكت ليالىَ لفراق والدى. وكنت أنا نائمًا، فغرق كيانى كله فى الذنب، لكنى لا أعرف لماذا لم أقبل يدها وقدمها وأطلب عفوها! لماذا يستسهل الابن ذنبه على أمه! ولماذا ينزف الدم إذا أغلقوا جنة وجود الأم أمام وجهه يومًا ما، ندمًا وألمًا.

فضلاً عن أننى آنذاك كنت ثملاً بالنجاح، فوجود "أليس" قد شغل مكان "مادلن" وأمى وكل شىء آخر.. ولم أنتبه لشىء إلا لسعادتى.

***

خير أم شر، فى النهاية كل يوم له آخر... وجاء اليوم الموعود وذهبت إلى نادى التنس بوجدان وقلب سعيد، وأشعر بشىء من الغرور. كانت "أليس" تجلس فى سيارتها فى انتظارى كانت لا تريد أن تدخل وحدها بدونى. عندما رأتنى نزلت واعتذرت بنظرة ودودة، حتى إننى غفرت لها كل ما فعلت بى.

عندما دخلنا النادى يمسك كل منا بيد الآخر، كان صوت المدح والسعادة يرتفع من كل ناحية. كانوا يقولون يا له من زوج جميل!! وعادت زهور الرياض التى كانت قد سرقتها الرياح.

كنا نتحدث ونضحك مع الجميع، ولا نريد أن نكون وحدنا، لذلك شغلنا باللعب، لعبنا ساعتين فى نفس واحد. أحياناً كنا نلقى نظرة كالعادة، على مكان جلوسنا وحديثنا تحت تلك الشجرة لكن أحدًا منا لم تكن لديه جرأة أن يقترح الجلوس. قضينا الوقت فى اللعب ولم نتحدث بكلمة واحدة عن الحب أو الكره أو عن الماضى. فى اللحظة الأخيرة بينما كانت "أليس" تستعد لتتحرك بسيارتها، قالت: سوف نتحدث غدًا.

كانت نوبة "مادلن" أن تأتى تلك الليلة إلى منزلنا، لكن أمى دخلت حجرتها لأن حالتها ساءت. أصبحنا أنا و"مادلن" وحدنا، فقالت: أتعرف لماذا يزداد ضعف أمك وتعبها يومًا بعد يوم؟ قلت: لأنها لا تريد أن تعرض نفسها على طبيب.

تعلقت عيناها بالأرض ولم تنطق بشىء. سألتها: أتعرفين أكثر من هذا عن سبب مرض أمى؟ فانتظرت ثم قالت بصوت كأنه قد تحطم فى حلقها: لسوء الحظ... فإن ألم هذه السيدة الملائكية يزداد كل يوم، وعليك أن تعرف السبب، ربما لا تسمح هى لى.

أردت أن أسأل سؤالاً آخر. لكنها قامت وسلمَت ثم ذهبت... ذهبتُ إلى باب حجرة أمى وطرقته فلم ترد، فتركتها على أمل أن تكون قد نامت واستراحت. ذهبت إلى حجرتى.

كانت الفتنة التي أثارتها مقابلتي غير المفيدة لـ"أليس" قد حملتنى وشتت تفكيرى كما يهب الريح على بيدر من التبن، لم يدعنى أستغرق فى التفكير لحظة، فأعرف لماذا يزداد تعب أمى وألمها، أو لماذا لم تقل لى "مادلن" سبب ذلك التعب رغم أنها تعرفه؟ نهضت ومشيت.

هكذا كنت مضطربًا حتى إننى لم أستطع أن أدقق وأفهم لماذا لم تلق "أليس" بنفسها بين أحضانى، ولم تقل أنا ملكك من الآن، ألم تنفصل عن "ميشيل"!؟

في دوامة هذا الخيال كان النداء الوحيد الذى ينقذنى هو وعد "أليس" عندما قالت: سوف نتحدث غدًا. في الغد جاءت "أليس"، لعبنا لكن حواسها كانت مشتتة، تلعب بشكل سيئ ولم يمض ربع الساعة حتى قالت: لنذهب ونجلس بجوار حمام السباحة ونتحدث. جلسنا وبعد فترة من الصمت قالت: لماذا لا تتحدث؟ لماذا لم تتغير طوال هذه الفترة!؟ كنت أتخيل أنك أصبحت رجلاً بعد عام ونصف، وأن سمات الرجولة قد ظهرت عليك، لكننى الآن أرى أنك لا تزال الطفل الخجول، المحبوب المدلل كما كنت...

بقيت متحيرًا كتلميذ لم يفهم الدرس أمام المدرس. فألقت برأسها لأسفل. وقالت: توقعت أن تكون مستعدًا، تسدل الستار الخادع عن المستقبل أمام وجهى بمجرد أن ترانى، هكذا كما أحب أنا. كنت

تعتقد أنك قد ضحيت بنيران الهجر، تعرف كيف تحفظ قلبي الشغوف هذا بأي قيود كانت، لكني أرى أنك لسوء الحظ كسابق عهدك، تعتقد أن جمالك يحل محل أي شيء آخر!! ربما صدقت أن عشقي لجمالك هو الذي جذبني من "ميشل" وأتى بي إليك مرة أخرى!..."

لو انك كنت تنزع القشر عن تفاحة حمراء، على أمل نعومتها وعطرها وحلاوتها، وبينما كنت تضعها في الفم إذا بها كالحجر تحطم أسنانك، فهل تعجبك؟ أو ذهبت إلى منزل صديق عزيز في دعوة على أمل المحبة والصداقة وقضاء وقت جميل، لكنك عندما جلست بوجه طلق فبدلاً من تقديم الورود والأطعمة اللذيذة للمضيف، قدموا لك ما لا يناسبك، فكم يكون اضطرابك وحزنك؟ وجدت أنا هذه الحالة نفسها عند سماع عتاب "أليس" وتوبيخها لي، فارتجف قلبي وانعقد لساني.

ضحكت "أليس" وقالت: أعتقد أنك قد نظمت بعض الغزليات من أجلي بدلاً من كلام العقل الموزون وتريد أن تقرأه! فقلت: هذه هي الحقيقة، لأنني كم حزنت واحترقت لرحيلك، والذي لو استطعت أن أكتبه لكان من أجمل الأشعار، ولكني لم أفكر في النقود والماديات بعدك لحظة واحدة، لأنني لم أكن أحتاج إلى الثروة والجاه بدونك. قالت: كم كان جميلاً أن قلت الحقيقة، على الرغم من أنك لو لم تكن قد قلت الحقيقة ما كنت أعتقد بغير ذلك بشأنك. ولو كنت فكرت بغير ذلك لكان وهماً وخيالاً وأملاً، وكنت قررت أن أترك "ميشيل" في هذه

الأيام الأخيرة. رأيت فى الحلم أنك تعيش فى منزل فخم، قابلتنى بالأحضان، أخذتنى إلى مكتبك دون أن تقول شيئًا وقد فتحت صندوقًا حديديا كبيرًا كان مختفيًا بالحائط وقلت: "هذه كلها سهام هذه كلها جواهر، هذا كله ذهب وأموال، حصلت على هذه الثروة الضخمة بقوة عشقك. وأنا أضع كل هذا رهن أمرك..."

رأيت فى اللحظة التالية أننى قد وقفت معك فى كنيسة أمام القسيس وتزوجنا...

ثم عادت تتحدث، لكنى لم أكن أسمع شيئًا، كنت أرى فى الخيال أن ملاكًا قد هبط لى من السماء، لكنه بدلاً من أن يحملنى على جناحيه إلى السماء، كان يخفض جناحه ويطلب منى أن أربط ذلك الوجود الرقيق بسلاسل الذهب والأحجار الكريمة وأكون ثقيلاً... فكنت فى حيرة من هذا العجب.

فقالت "أليس": فيم تفكر؟ ولماذا تتحير؟ قلت: كنت أتحسر على «لماذا تركت "ميشيل" رغم ما لديه من ثروة وجاه...؟»

وكنت أتحسر على شيء آخر لكنى لم أخبرها به، وهو أننى بسبب حب "أليس" هذه الأيام، أسأتُ معاملة أمى، وكرهت "مادلن".

قالت: لو لم أكن شاعرة مثلك، لما استسلمت لصغائر الأمور، وصغائر القلب، وما فقدت "ميشيل" وتركت حياة رغدة ومستقبلاً

مشرقًا، لا أعرف لماذا أخذت أنتقد جنونه وجرأته، وذلك على عكس المنطق والعقل الذى كان يقودنى دائمًا.

ثم أمسكت يدى ومسحت باليد الأخرى حبات الدموع من على وجهها، فهمت أنها تحبنى لكنها لن تخرج عن طبيعتها المحبة للزينة والتمرد، تعاطفت وقلت: إن فعلت شيئًا كى يأتى "ميشيل" راكعًا ويطلب يدك، هل سترضين عنى؟

أردت بهذا أن أتدارك الخيانة التى كانت بذهنى نحو "مادلن"، وعقابًا لى على عصيانى لأمر أمى ورغبتها، وأنزع "أليس" من قلبى، وأودعها لشخص آخر.

قالت: أعترف أن "ميشيل" أو غيره ممن سيحصل على جسدى لن يحصل على روحى، ستكون روحى وإلى الأبد أسيرة عشقك. أنت طيب، أنت جدير بالحب والعشق والعبادة، خسارة أن تؤذى روحك اللطيفة الشاعرة بالوجود المليء بالأشواك والسموم.

***

فى اليوم نفسه أخذت من "ميشيل" موعدًا، وذهبت لزيارته. قلت: لقد جئت لأتحدث معك عن "أليس". فقال: أنا متأكد أنك كنت تعرف أنها جعلتنى أقصر فى حقك، وقد جئت تلومنى. هكذا يفكر كل الأطفال الصغار مثلك، متناسيًا أن المرأة كالفراشة التى تستقر حيثما تريد على كل زهرة، مجنون ذلك الشخص الذى يربط القلب بفراشة،

ويريد أن يحركها حسب رغبته. لكن ليطمئن بأنك فقد تركت "أليس"، وأعدك ألا أعود إليها مرة أخرى.

قلت: لقد جئت لأرجوك بأن تصل علاقتك بها مرة أخرى. فضحك وغمز بالعين لتصور أننى أمزح. اضطررت لأن أحكى له ما حدث بينى وبين "أليس" فقال: لا وقت لدى أكثر من هذا اليوم، غدًا ليلاً هناك حفل فى منزل فلان وهو جدير بالمشاهدة، أستطيع أن أحمل معى شخصًا آخر، فتعال غدًا الساعة الثامنة، نذهب معا إلى ذلك الحفل كى أثبت لك هناك، أننى لا أستطيع أن أقبل رجاء ابن عمى العزيز.

وفى تلك الليلة كنت أفكر فى الفدائيين اليابانيين، حين يلقون أنفسهم فى فم الموت بشوق وشغف لحفظ الوطن. كنت أتمنى أن أعرف ما طعم هذه التضحية لديهم، فلا يهاب التضحية ونيران الهجر والخوف. كنت أعتقد أنها ربما تكون شيئًا شبيهًا بشربة مرة وحلوة، مما يصببه القدر فى حلقى.

كنت أعرف أن عودة "أليس" إلى "ميشيل" لن يكون بالنسبة لى أسهل من فقد الروح، لكن تصور سعادة أمى وتحسن صحتها كان يهون علىّ هذه التضحية ويجعلها مستساغة. تأكدت أن أمى إذا علمت أننى انفصلت عن "أليس" وأفكر فى الارتباط بـــ"مادلن" فإن ذلك سيساعدها فتسترد صحتها، وتتلون ورود وجنتيها مرة أخرى.

فجأة غرقت فى بحر الحيرة والحزن، لتصور أن "مادلن" قد تفضل عليَّ المنافس وينتهى هكذا الأمر، وأكون بذلك قد فقدت آخر سفينة للنجاة.

فى الغد كانت أمى مريضة، فلم نتناول طعام الإفطار على السفرة. عصرًا كانت متعبة حتى إنها عادت من مصنع الحياكة ودخلت حجرتها، وأغلقت الباب فى وجهى. استطعت بكل حيلة أن أحصل منها على إذن كى أذهب مع "ميشيل" ليلاً إلى الحفل وربما أتأخر.

***

فى الساعة الموعودة ذهبنا أنا و"ميشيل" إلى الحفل، كان حفلاً عجيبًا. دخلنا من باب الحديقة فتعجبنا لأن المكان يخيم عليه الظلام. عندما تقدمنا بعض الخطوات والتفتنا نحو الشارع رأينا المقصلة (تلك الآلة الفرنسية المعروفة للإعدام) وقد تساقط الدم أسفلها. قطرات الدم تملأ أركانها، وكان الضوء الأزرق الخافت للمصباح يثير الرعب أكثر لهذا المنظر.

وفى انحناءة شارع آخر، ظهر فجأة غول وقد أمسك بيديه الطويلة والأصابع التى تعادل ضعف الأصابع العادية مكنسة، وكان يجذب ملابس الضيوف، فكانت النساء تصرخ وتسرع الخطى. كان وجه ذلك الغول بطول وجه الحصان، وكان لون الموت يشع من

شعاع المصباح الخافت الأزرق. لا أعرف لماذا اقشعر شعر جسمى لذلك المنظر.

بالقرب من باب العمارة اصطدمت رأسنا وكتفنا بشيء فنظرنا، فإذا به ثعبان ضخم وقد تعلق بشجرة، وفتح فمه كى يلتقمنا. ألقينا بأنفسنا لا إراديا إلى الممر، كان نصفه مظلمًا، وعندما تقدمنا خطوتين ثلاثًا، رأينا أمامنا تابوتًا ينام به أحد الموتى.

كأن مئات الرجال والنساء والأطفال يعذبون في ذلك المنزل، فكان الصراخ العالى مفزعًا، حتى إن الدم توقف فى عروقنا.

صعدنا درجات السلم، كانت قبة الدرجات مغطاة بخيوط العنكبوت، بينما تتجول العناكب بين الخيوط صعودًا وهبوطًا.

دخلنا ممر الطابق العلوى، فإذا بطفل رضيع يرقد عاريًا على ظهره فوق لوح تخرج منه عدة صفوف من الأسياخ الحادة، والتى تستقر فى بدن الطفل.

دخلنا حجرة كبيرة نصف مظلمة، بها عدد من المناضد الصغيرة، وقد أعدت كل واحدة منها لجلوس أربعة أشخاص، وقد وضعت دون ترتيب، ويتدلى فوق كل منضدة مصباح هوائى. زجاج معظم النوافذ محطم، وقد أوصلوها بأوراق قديمة يلفها دخان، ذات

ألوان مختلفة، بينما كانت الحشرات من ثعبان وحرباء وعقرب، ورتيلاء[1] وغيرها فى نزهة على السقف والجدران.

لم يشأ "ميشيل" أن يحيرنى أكثر من ذلك، فقال: لقد جمع التجار من الفنانين عددًا من الرسامين لإعداد معرض للفنون، وطلبوا منهم أن يضعوا فكرة مبتكرة، حتى يخرج الحفل كما يريدون. وقد أقاموا هذا الحفل على شرف أحد الكتّاب المحبوبين، ممن يتخذونه قدوة لهم. أولاً: حتى يذهب كل ما ينفق إلى جيوب الفنانين. ثانيًا: يخرج الحفل بلا نظير أو شبيه. مضيفنا هو ذلك الشخص الذى يجلس فى ركن تلك المنضدة كأنه أحد الضيوف، فلا يستقبل أحدًا حتى يشعر الجميع أنهم أنفسهم أصحاب المنزل.

ثم قدم لى دعوة الحفل وكانت بالشعر، قال لقد دفع هذا الرجل مبلغ أربعة آلاف دولار لأحد الشعراء كى يكتب هذه الأشعار فقط. فأطلق ذلك الشاعر مع صاحب الحفل على هذا الحفل اسم "حفل الأرواح"، لأن هذا المنزل لم يكن مسكونًا لعدة سنوات، وبعقيدة العوام فالمنزل الذى لا يسكنه الناس يكون مسكنًا للأرواح. خلاصة ذلك أن هؤلاء الفنانين قد أقاموا هذا الحفل العجيب النادر لإسعاد أنفسهم فى الحقيقة.

---

(١) الرتيلاء: حشرة من نوع العناكب، ولكن لها بطنًا أكبر نسبيا وأرجل أطول، تتحرك سريعًا وتقفز على صيدها من الحشرات عادة.

كان الضيوف يتوافدون فى جماعات الواحدة بعد الأخرى. وكان "ميشيل" يعرف معظمهم ويقدمهم لى، وكانوا جميعًا من أعلام الفكر والأدب ونجوم السينما المعروفين وأصحاب المين، وكل شخص كان يجلس أو يقف حيثما يشاء، يتحدث مع الآخرين.

كنت قد جئت لأتحدث مع "ميشيل" عن "أليس"، لكنى نسيت قصدى هذا وسط هذا المكان العجيب، فضلاً عن أن "ميشيل" كان يبدو كالمترقب والمضطرب، فلم يكن يسمع شيئًا، ذهب وعاد مرارًا، يزداد اضطرابه كل لحظة. قال: أنتظر شخصًا ما، لكن نظرًا لأنهم أعدوا ثمانى حجرات لاستقبال الضيوف، فأنا لا أعرف أين أجد ضيفى.

ذات مرة بينما كان قد ذهب للبحث عن ضالته، جاء شخصان وطلبا منى على استحياء وفى تردد أن أسمح لهما بالجلوس فلا يوجد بالقرب منى مكان خالٍ. جلسا على منضدتنا، فقدمت لهما نفسى، وقدما نفسيهما لى. وعندما تنبها إلى أن اسم كلٍّ منهما يأتى غريبًا فى أذنى أخرج كل منهما بطاقة تعارف تحمل اسمه وأعطاها لى. للأسف فقدت إحدى البطاقتين واحتفظت بالآخرى، وهى تحمل اسم الدكتور محمود ضيائى. ذكر الآخر أنه كاتب، وسأعرض عليكم بعض نماذج من فكره، لكنى نسيت اسمه.

عندما عرفت أنهما إيرانيان سررت جدا، لأنها كانت المرة الأولى التى أرى فيها بعينى أحد أهالى تلك الأرض العريقة، رغم أننى سمعت وقرأت الكثير عن إيران. لحسن الحظ شعرت بالارتياح بعد عبارتين ثلاثًا من السؤال والإجابة، تحدثنا بحرارة. كنت أسأل عن كل ما أجهل عن المشرق وإيران، وأسمع الإجابة.

ونسيت "ميشيل" تمامًا حتى جاء فجأة ومعه فتاة كالبدر ووقف فوق رءوسنا، فقدمت له هذين الشخصين الإيرانيين. وعرفت "ميشيل" للإيرانيين، فقدم لنا هو الآخر تلك الفتاة باسم "ليدا".

رغم أن المنضدة كانت لأربعة أشخاص جلسنا نحن الخمسة أشخاص، لأن تلك الفتاة كانت شغوفة لسماع الاسم الإيرانى، أحضرت كرسيًا من المنضدة المجاورة بلا خجل، وقالت: نجلس على مسافة أقل كى يصل صوتنا بعضنا إلى بعض بصورة أفضل.

بعد قليل قال "ميشيل": الأفضل أن نذهب جميعًا ونحتسى مشروبًا، لكن "ليدا" التى كانت قد بدأت الحديث مع الكاتب الإيرانى لم توافق وقالت: اذهب أنت وأحضر لنا مشروبًا. فنهض "ميشيل" وأخذنى معه. عندما دخلنا حجرة الشراب تراجعنا خطوة إلى الخلف، لأن قردًا أسود اللون ضخمًا كان يقف بالقرب من الباب يحرك الرأس واليد للسلام.

حملنا معنا المشروب للجميع وأتينا به إلى المنضدة. من فحوى الحديث اتضح أن من قدم الدعوة للضيفين الإيرانيين، عمدًا أو سهوًا، لم يكن يعلم شيئًا عن طريقة الاحتفال، فروى لهما "ميشيل" القصة. كانا ينصتان جيدًا تعلو وجههما ابتسامة ممتزجة بالحيرة، ويسجل تلك القصة فى ذاكرتيهما. فى تلك الأثناء علا صياح المعذبين مع لحن الموسيقى والرقص، فطلب "ميشيل" من "ليدا" الرقص، وجلسنا نحن نتحدث بشوق حتى عادا مرة أخرى. لم تذهب "ليدا" للرقص ثانية وجلسنا أنا والكاتب الإيرانى وهى، وقام "ميشيل" والدكتور "ضيائى"، إذ ذهب كل منهما يدعو سيدة للرقص معه.

وفى أثناء ما كنا أنا و"ليدا" نتحدث أخرج الكاتب الإيرانى قلمه من الجيب، كان يدون شيئًا على منديل السفرة الورقى، أردت أن أعرف ماذا يكتب، لكن منعنى الأدب من إظهار هذه الرغبة، خاصة وأننى كنت أعتقد أنه يدون لنفسه ذكرى، وربما تكون باللغة الإيرانية.

أغلق القلم ووضعه فى جيبه، ووجه ذلك المنديل ناحيتى أنا و"ليدا"، رأينا أنه قد كتب باللغة الإنجليزية وأخذنا ننظر إلى المنديل بولع، وكان قد كتب: "حفل الأرواح هذا أشبه ما يكون بتصوير الحياة... نعم الحياة، فهى مليئة بالأهوال والخوف والخطر... ونحن لاندرى شيئًا عن هذا الخوف ونشغل أنفسنا بالسعادة والسرور..."

لمعت عينا "ليدا" من الشوق وقالت: هذا الشعر وهذا التشبيه، أثارا ذلك اللحن المليء بالشجن، وربما سمعه الجميع فأخذوا يرقصون على نغماته.

شعر الكاتب الإيرانى بالخجل، عندما رأى أن البنت قد فقدت اتزانها، وتريد أن تمدحه بأكثر من ذلك لهذه الأشعار. نهض وقال: أذهب أنا أيضًا وأشاهد الرقص.

بقيت وحدى مع "ليدا"، فقالت: كنت قد سمعت أن الشرقيين فى غمرة سعادة الكأس ينتبهون إلى فناء الدنيا. كم كان جميلاً أننى شاهدت نموذجًا حيًّا على صدق هذا الكلام.

قلت: ربما كان هؤلاء أكثر عقلاً، لأن تذكر فناء الدنيا يقلل من الأحزان التى تمنع الشعور بالسعادة، أيضًا تهيئنا لتحمل الأحزان التى تحتاج إلى مائة طاقة أكثر من تحمل السعادة.

سألت بتعجب: ألديك أنت أيضًا أحزان؟ فقلت: كثيرًا. فكرت ثم قالت: أنا أيضًا أعترف بلا خجل أننى لدى أحزان. قلت أنتِ لماذا!؟ فتاة بهذا الجمال وعاشقة ولديها معشوق شاب ثرى كـ"ميشيل"...

لم أتم الكلام حتى عاد "ميشيل" من الرقص وجلس، وسأل: فيم كنتما تتحدثان؟ فأعطته "ليدا" تلك الخاطرة الإيرانية. فرأها وألقى بها على المنضدة وقال بضحكة مليئة بالتهكم والسخرية: هذا كلام

جيد بالنسبة لـــ"وليام"؛ لأنه يعيش فى عالم الشعر والخيال. أما أنا فعلى العكس من الكاتب الإيرانى، لقد اقتبست فكرة من هذا الحفل وسوف أربح مبالغ باهظة.

قلت: لكنى لا أعتقد أن هذا الكاتب لا يبيع خياله بفكرة لك.

ابتسمت "ليدا" وكان يبدو من حالتها أنها تصدق كلامى، فقال "ميشيل" بلهجة عصبية: لا تنصتى إلى كلام "ويليام"، فكل ما يقوله وهمٌ وخيالٌ. إذا كنتِ تريدين معرفته دعيه يجيب عن السؤال الذى يتوقعه منى فى حضورك حتى تعلمى كم هو إنسان.

عندئذ التفت ناحيتى قائلاً: ابن عمى العزيز، إنك تزهو كثيرًا بقوامك الرشيق ومحياك الوسيم، لكن قدك طويل بنفقاتى، وعلى العكس مما تتصور، رأيت كيف أن "أليس" تلك الفتاة الجميلة تركتك وجاءت معى! رأيت كيف أن جمالك الوضاء وقامتك الرعناء ومشاعرك الرقيقة وقلبك الذى يفيض بالشعر، كل ذلك لا يقاوم عقلى المتفتح وجيبى المملوء، وأن ذلك المعشوق قد فضلنى عليك؟! رغم أنه جاء ورائى، لم يكن لدىّ ذنب لكنى سررت لهذه الواقعة واستراح ضميرى لأننى حطمت فيك غرور الجمال ولقنتك درسًا. احتفظت بـــ"أليس" فترة، لكن عندما رأيت أن أخلاقها لا تتفق وأخلاقى ولم تعجبنى تركتها. الآن وقد جئت أنت تتوسط لدىّ كى أقبلها مرة أخرى! دعوتك الليلة إلى هذا الحفل خاصة، حتى ترى "ليدا"، وكم

هى أجمل وأفضل من كل الجميلات. فهل من الممكن أن أقبل رجاءك فى وجود ملكة جمال كهذه؟ أو أن أضحى بالقمرِ من أجل نجم؟ كان التقصير من "أليس"؛ لأنها لم تتصرف حسب رغبة قلبى، فكل إنسان مثلها ظالم متهور، حتمًا سيقرر مصيره، عندما يكون الأمر قد انتهى، ولا ينفع الندم.

كان راسى قد سقط على صدرى، ولم أكن أنظر إلى وجه "ميشيل"، وكنت أنزف الدم فى انتظار انتهاء تلك الخطبة العصماء. تنبهت لحظة كانت "ليدا" تشير له قائلة: كفى. فصمت ميشيل وقمت أنا كي أذهب، توسلت "ليدا" لى وقالت: اجلس قليلاً .

وقف "ميشيل" وقال: انصحى أنتِ ابن عمى هذا الساذج، سريع الغضب، وأفهميه أن الرجال الجادين مثلى يتحدثون بصراحة ووضوح، لكن الصراحة ربما لا تكون حائلاً دون طهارة قلوبهم.

ذهب هو، خفضت أنا و"ليدا" الرأس وأخذنا نفكر. فى أثناء ذلك الصمت كان قلبى يصرخ ويئن بسبب "ميشيل"، لم يكن هذا الصراخ لأنه تعامل معى بغلظة ووقاحة، لكنى كنت أحترق، لأنه ((لماذا وقعت إنسانة بجمال "ليدا" وشكلها الذى لا نظير له فى شرك "ميشيل" وبلائه، لماذا يقع وجدان بهذه الرقة، لم يستطع أن يرانى أذهب متضايقًا من ذلك المجلس، فى براثن قسوة قلب "ميشيل" وحدة لسانه؟ كنت أندم أننى فكرت فى هذا الأمر)).

هل سمعت "ليدا" الأنين الذى بوجدانى؟ هل رأت الأفكار المحرقة التى تجول بخاطرى...؟ حقًا لقد رأت وسمعت، فقالت: نذهب إلى الحديقة لنستنشق الهواء.

ذهبنا وجلسنا على إيوان بين الزهور، وكانوا قد علقوا امرأة ورجلين بأغصان شجرة البلوط الكبيرة التى أمامنا من رقابهم، يهتزون لهبوب النسيم... ولون القمر الأصفر يبدو من الخلف، فيضيئون كمصباح المذنبين على هذه الفاكهة.

قالت: نعم، كان الكاتب الإيرانى محقا، إن أحدًا لن يستطيع أن يجسد الحياة أفضل من صاحب هذا الحفل، فسعادتنا ونعمتنا ملوثة بالأحزان، وإلا فينبغى أن تكون من أسعد الشباب، لما تحظى به من جمال فى الشكل والهيئة. قلت: أنت أيضًا لا أعتقد أن وجودًا بهذا الجمال والدلال يكون أسير حزن. قالت: ربما كانت "أليس" محقة فى أن تتركك وترحل مع آخر، لأننى مثل "أليس" كنت مخطوبة لشاب وسيم، فظلمنى واعتدى علىّ فلجأت إلى "ميشيل" القبيح المادى. لكننى الآن أرى أنه ليس أفضل منك.

لقد استراح هؤلاء الموتى الذين تعلقوا بأغصان الأشجار من ظلم بنى جنسهم، وأخذوا يرقصون من السعادة على ألحان النسيم.

سألتها: ألديك حقا شكوى من "ميشيل"؟ قالت: لقد مللته! قلت: رغم أن كلا منا تعرف على الآخر منذ ساعة واحدة لا أكثر، وليس

من حقى أن أسأل عن شيء من أسرارك، لكنى أتمنى أن أودع أسرارى لديك، قالت: أنا أيضًا بحثت عن شخص مثلك يسمع كم عانيت ولا أزال. فأنا مسكينة غير الآخرين، لم أحب أى شخص ولا أعرف متى يكون معشوق قلبى ملكى من القلب والروح. لم أر سعادة فى الحياة، فما أكثر من يعيشون سعداء بلا محبوب أو معشوق ويستمتعون بالطبيعة والشعر والموسيقى والفن، لكنى دائمًا أبحث عن ذلك العاشق الوفى الذى يعرف قدرى، ويكون بالنسبة لى كالهواء المنعش، والشمس التى تضيء لى الدنيا . نعم، الجميع يعيشون وأنا أموت! لا أعرف ماذا اقترفت من ذنب حتى أحترق طوال العمر بنار الظمأ. أعيش دائمًا فى سراب، ما هذا الظلم والعذاب الذى قدره الله لى!

قلت: سر عجيب ألا يجد جمالك النادر هذا إلى الآن عددًا من المغرمين الذين يضحون بالروح من أجله! قالت: لدىّ الكثير من العشاق المحترقين، لكن لم يخلق الله بعد هذا الذى أتمنى.

غضبتُ وبعد لحظة من الصمت، سألتُ: وكيف ينبغى أن يكون ذلك الذى تريدين؟ قالت: زوجى ينبغى أن يكون طويل القامة، جميل الهيئة، وسيمًا، يعبد الشعر والفن والطبيعة، عفيفًا، نقيًا، طيب القلب...

رأيت أنها تصفنى، أردت أن أمسك بيدها وأقبلها، أردت أن أخر على قدميها قائلاً: بالله عليك لا تحيرينى أكثر من هذا... وانطقى بتلك الدعوة التى جئت بها لى من الجنة...

ثم قالت: زوجى ينبغى أن يكون عاشقًا لى من القلب والروح، وأكون موضع اهتمام عينه وأذنه وفكره ووجدانه ومشاعره... قلت: يا ليت كل الجميلات قانعات بالقليل من الأمنيات مثلك... قالت: كان هذا هو كل أملى حقا، أن يكون زوجى وسيما، جميل الهيئة، عابدًا للفن. لكنى أضحى بكل ذلك نظير ذلك الشرط الأخير، أى أننى لا أطلب منه إلا أن يكون عالمًا بقدرى ووفيًّا، ويكون عشقه بلا حقد أو غش، لهذا وعلى الرغم من أن "ميشيل" كان قبيحًا عديم الشعور، فإننى وافقت على الخطبة منه لأنه مستعد أن يتدارك تلك العيوب بالعشق والإخلاص. كنت أتخيل أنه الوحيد الذى سيعرف لى قدر الجمال والعفة.

سألتُ: ألم يكن "ميشيل" وفيًّا لوعده؟ قالت: ماذا أقول؟ ماذا أقول...؟ ألم تر بعينيك؟ ألست شاهدًا على خيانة "ميشيل"؟!

أخذت أفكر كى أفهم ما الخيانة التى فعلها "ميشيل"، فلم أفهم وقلت: أنا لم أر أى عمل يعد دليلاً على عدم وفائه، فصرخت قائلة: هل الرقص مع الأخريات لا يعد خيانة!؟...

فتعجبت وقلت: أنا لا أعتقد أن الرقص يعد دليلاً على الخيانة...

فضحكت بمرارة، وقالت: ألم تفهم نظرات "ميشيل" إلى السيدات؟ ألم تر كيف كان ينظر من جانب عينيه نظرات شيطانية إلى تلك البنت ثم قام في النهاية وطلبها للرقص؟! قلت: أنا لم أكن متتبعًا لنظرات "ميشيل" ولم يكن لديّ اهتمام بشكل البنت. سألت: إذن فبمن كان اهتمامك؟ قلت: بك. قالت: كيف يمكن لرجل ألا ينظر إلى من حوله من الفتيات، رغم أنه يجلس أمام معشوقه! قلت: كنت أنظر إليكِ أنتِ فقط، لأنني لم أكن قد رأيت حتى هذه الليلة ذلك الجمال التام الذى كان قد رسم على صفحة الأمل بصورة حقيقية. تألمت وقالت: هل من الممكن أن تظل دائمًا على هذا الحال، فلا تهتم إلا بمعشوقك؟ فقلت: لن يصدر عني غير ذلك.

قالت: هل تستطيع ألا ترقص مع أحد إلا معشوقتك وزوجتك؟ فتوقفت أمام هذا الطلب العجيب وقلت: ...بالطبع ممكن!!

كأنني لست موجودًا ولا أسمع، سألت نفسها: هل هذا صحيح؟ هل بعد سماع كل هذا الكذب، يمكن أن يصدق كلام هذا الشخص؟

فقلت: أعتقد أن "ميشيل" سيعود الآن من الرقص، ولن تكون هناك فرصة كى أحكى لك قصتى مع "أليس". فقامت وقالت: نذهب

وراء تلك الشجرة عطرة الرائحة، نجلس فى ذلك الركن المظلم حتى لا يجدنا "ميشيل".

ذهبنا وجلس كل منا أمام الآخر على مقعد حجرى، لكن بدلاً من أن أحكى لها قصة "أليس"، حكت لى هى قصتها مع الشخصين اللذين تقدما لخطبتها قبل "ميشيل"، وعرفت أنها لم تجد ما تبحث عنه من صدق ووفاء فى أى منهما.

ولأننى كنت أعتبر الصدق والوفاء من صفات الكمال، وأرى أن كل شروطها فى شريك حياتها من الضرورات، فقد قلت دون إرادة منى: فلماذا إذن لم يوصلنا الزمان بعضنا ببعض أسرع من هذا؟ ولماذا تفصل الطبيعة دائمًا بين النصفين اللذين يكمل كل منهما الآخر!؟

فى تلك الأثناء جاء "ميشيل" إلى الحديقة، قرب كتفيه بعضهما من بعض لبرودة الطقس، ولرؤيته هؤلاء الأشخاص الثلاثة الذين تعلقوا بالمقصلة ثم ذهب. تنفست "ليدا" الصعداء لرحيله وقالت بصوت باك: ليتك تكون الصادق الوحيد، إذا أراد الله شيئًا كهذا، تكون أنت الملاك الذى أرسله الله لى من الجنة...

كأننى صُفعت بقوة، صعد إلى رأسى كل ما لدى من دم، فوقفت وقلت: هذه هى المرة الأولى التى يكذبنى فيها أحد... لو كنتِ رجلاً ما تحملت منه هذا التوبيخ....

فأمسكت بيدى وقالت: ربما أكون قد وجدت ضالتى أخيرًا بعد كل هذا الألم والحيرة، فلنذهب من هنا.

ذهبت وراء "ليدا" من تلك الحديقة وذلك المنزل كالداخل المطيع، وبلا إرادة ودون أن أودع "ميشيل"، ثم سمعت "ليدا" منى بعد ذلك قصة "أليس"، نظرت نظرة عاشقة وقالت: ربما لا أكون مخطئة هذه المرة، لكن لا... من أين لى أن أعرف أنك تحبنى؟ سألتها: ألست تحبيننى؟ قالت: أنت ما كنت أتمنى، وهل لك ألا تحب ما تتمنى!؟

سألت متحيرًا: هل تتنازلين أنتِ عن "ميشيل" الثرى من أجلى؟ فهزت الرأس بحسرة وقالت: كنت أطلب من "ميشيل" الوفاء، تنازلت مقابل الوفاء عن الجمال والفن، وأنت رأيت بعينك أنه لا يملكه.

قلت: لكنى فقير. فأخذت يدى وقالت: كل ثروة الدنيا لا قيمة لها أمام جمالك الذى لا نظير له، وروحك الغنية وقلبك المخلص. قلت: وأنا أضع كل هذا تحت قدميك.

عرفت أنا الجنة وأحوال الملائكة فى تلك الليلة، وفى ذلك المطعم عشنا سعادة عشق طوال عمر. مارسنا فى تلك الساعة كل

سعادة، وعقدت أنا معها ذلك العهد المتين الذى أبرمته الطبيعة مع الله فى إطاعة القوانين.

***

رجعت إلى المنزل ثملاً بالعشق، وحكيت لأمى ما حدث بالتفصيل. بعد أن فكرت دقيقة، رفعت الرأس وقالت: لا أمل أو هدف لى فى هذه الدنيا إلا سعادتك، لكن خسارة أننى لم أستطع أن أهيئ لك أسباب السعادة؛ فالسعادة بيد القلب وقلبك ليس بأمرى.

فاضطربت وقلت: أترين عيبًا فى هذا الاختيار؟ هل يمكن أن تشيرى لى على بنت أفضل منها؟ قالت: حاشا لله أن أتحامل عليك برغبتى ورأيى، أو أن أنتقد شخصًا. توسلت لها قائلاً: تكلمى بكل ما لديك، فأنا فى منتصف طريقى بالحياة، فلتضحِّى، ودعك من المبادئ الأخلاقية.

فتأملت وقالت: معك حق، ينبغى أن أقول الآن كل ما أعرف بشأن هذا الموضوع، وإلا أكون قد ارتكبت معصية، ربما تكون أعظم من الغيبة. فقلت: تكلمى فأنتِ منزهة عن كل ذنب.

قالت: إن كل ما أفهمه هو أن هذه الفتاة غيورة جدا وسيئة الظن، وأنت لأنك لم تر هذا الداء بمنزلنا مطلقًا، فلا تعرف شيئًا عن سموم الغيرة التى تقضى على كل سعادة. قلت: أمى الحبيبة إذا لم يكن العاشق غيورًا فهو ليس عاشقًا. قالت: بالطبع أوافق على أن

الغيرة هى ملح العشق، لكن إذا تجاوز الحد وأدى إلى سوء الظن فإن الكبد ينزف دمًا من هذا الملح.

قلت: بالطبع، إن الطلب الذى كان من وجهة نظرى عجيبًا هو طلبها ألا أرقص مع أخرى طوال حياتى، لكنه يعد دليلاً على كمال المحبة وشدة العشق، وأنا أقبله بكل قلبى وروحى. أمى الحبيبة، دعك من هذا، فـ"ليدا" تحبنى جدا مما يسهل أمامى كل أمر! أنت يا من تعرفيننى وتعلمين مدى صدقى ووفائى، لن يكون عدم الرقص مع الأخريات أمرًا صعبًا علىَّ، فى مقابل عشق محبوب بهذا الجمال والكمال.

قالت: أتمنى أن يقتل ملاك العشق هذا الشيطان الذى يلد الغيرة فى مهده حتى لا يكبر طفله، ولا تمتد يده إلى الظلم والاعتداء.

فضحكت وقلت: إذا كان قلقك لهذا السبب فقط، وليس لديك أى اعتراض آخر على "ليدا" فاطمئنى لأن دموع غيرة "ليدا" كالمطر على الرياض، وسوف يجعل المطر خاطرى أكثر نضرة بسبب السعادة.

صمتنا قليلاً، فكنت أرى "ليدا" فى الخيال وقد سمعت دفاعى هذا تضحك سعيدة، فقلت فى نفسى: أيها المعشوق الذى لا نظير له لا تخف وكن غيورًا كما تريد، لو كنت غيورًا من روحى هذه فأنا أضحى بها.

فجأة سمعت اسم "مادلن" من فم أمى وانتبهت لها، لكنى انتظرت طويلاً، فلم تتحدث ثانية . فسألت: ماذا تقصدين من ذكر اسم "مادلن"؟ قالت: لا أعرف كنت أفكر فيها، وجاء ذكر اسمها على لسانى دون وعى منى، فضحكت وقلت: ربما تريدين أن تقولى إن "مادلن" بنت طيبة وليست غيورة أصلاً، وإنها تحبك...

نعـم، ربما لا تكون "مادلن" غيورة، لكن هذا نفسه يثبت أنها لا تحبنى؛ سبب آخر هو أنها سعيدة هانئة مع خطيبها الآن، ويتشاورا معًا فى كيفية الاستفادة من رأس المال الذى تركه لها والدها.

فتأوهت وقالت "خسارة أنك لم تعرف "مادلن"، لا أقول إنها تحبك أم لا، فأنا لا أريد أن أتدخل فى مشاعرك تجاهها، لكنى كنت أتمنى أن تعرف "مادلن" أكثر، لا آخذ عليك عيب عدم الدقة وقلة العـقل، فما أكـثر ما يكون الرجال العقلاء ينظرون إلى الورد لكن لا يرونه؛ وما أكثر المفكرين الذين يقضون سـنوات مع واحـدة، ولا يعرفونها، لكن أنت بهذه الطيبة، خسارة ألا تكون قد عرفت ملاكًا مثل "مادلن"، رغم اقترابها منك كل هذا!

هذا الظاهر البارد الرزين الذى تراه، هو كالبحر الهادئ الذى يخفى تحته حركة وغليانًا لإعصار غير ظاهر؛ ففى قلب "مادلن" الحساس، هناك حب واضطراب، والذى لا يمتلكه إلا الشعراء وثاقبو

البصر؛ فالعشق والحرقة المختفية بوجدان هذه البنت، هو نفسه الذى يعطى الشاعر القدرة على نظم الشعر، ويحث المطربين على غناء الألحان الملائكية.

"مادلن" هى كالشاعر الرقيق الذى ينظم فى قلبه ديوانًا، من كلمة حب واحدة، حتى لو لم تكن المحبة قد خلقت، فبقوة العشق تجعلها تبدو فى شكل أمنية، من المستحيل ألا تكون "مادلن" عاشقة للجمال، من الصعب أن أتصور ألا تكون عاشقة ومفتونة بالخير.

كانت روحها الحساسة عابدة الجمال ترى أبعد وأدق نقطة ورمز للخير والجمال، حتى تنقلها للآخرين، الحقيقة هى أنك كنت تتوقع أن يتحطم جبل الوقار والصمود هذا، وينثر تحت قدم شخص آخر، أو يعلقها آخر زهرة بيديه..."

أردت ألا أفهم ما تقوله أمى، بمعنى أننى كنت مفتونًا بوجود "ليدا" حتى إننى لم أسمح بأى تفكير آخر يتسلل بوجدانى، كان وجهها الفتان يخفى عالمًا، ولم أكن أرى إلا هى.

جاء التعقيب على حديث أمى بوصف "مادلن" من ناحية، أيضًا ملامتها لى بأن نهضت وتذرعت بالتعب، وذهبت إلى حجرتى.

***

فكرت طويلاً فى تلك الليلة وعانيت حتى أستطيع أن أطهر وأطمئن ضميرى من كل ذنب وخجل وقلق، وأودع القلب دفعة

واحدة إلى "ليدا"، وفى النهاية استطعت أن أظهر عيوب "مادلن" وخطاياها فى نظرى عظيمة ولا تغتفر. فى الغد ذهبت كى أتحدث مع "مادلن" لآخر مرة، وأخلص ضميرى من عبء هذا الحمل.

كنا لم ير بعضنا بعضًا منذ عدة أيام، تنبهت من الوهلة الأولى أن عينيها الجميلتين ونظرتها الودودة، وتلك الحركات والمعاملة الهادئة قد تبدلت، وتتعامل معى متظاهرة باللامبالاة والشجاعة. سعدت لأننى لم أكن مخطئًا، ومنحت لنفسى الحق فى أن أقول الحقيقة واضحة. جلسنا وكنت أبحث عن فرصة لأبدأ الموضوع، حتى ابتسمت هى وقالت: أتعرف أن "موريس" قد تقدم لخطبتى ووافقت؟ قلت: أنا أيضًا جئت لأخبرك بأننى قد خطبت "ليدا"، قالت: مبارك إن شاء الله، شاب وسيم مثلك لابد له من زوجة ورفيقة جملية مثله.

فتعجبت وسألت: هل رأيتها؟ فانتظرت ثم قالت: لا. لم أر "ليدا"، لكنى متأكدة من أن قلبك العابد للجمال لا يمكن أن يختار إلا جملية. فقلت بلوم: أنتِ أيضًا لست أقل منى فى عبادة الجمال، لهذا فقد اخترت "موريس" من بين الجميع.

فابتسمت، وغيَّرت مجرى الحديث إلى موضوع آخر. رغم أننى لم أستطع أن أتحدث بواحدة من تلك الملامة والكلام الذى كنت قد أعددته لهذا، فإن حديثنا ونظراتنا وحركاتنا قد صارت بالتدريج

باردة ورسمية، وكأن كلاً منا قد قال للآخر إن هذا هو آخر لقاء بيننا.

وقفت وخرجت من منزل "مادلن" كطائر انطلق من القفص، ذهبت إلى "ليدا". الطائر المنطلق حديثًا من قفصه، كيف تكون حالته عندما يصل إلى الحديقة والرياض؟ شعرت أنا بتلك الحالة. كأن الله قد خلق كلاً منا للآخر منذ الأزل، لم تكن لدينا نظرة وكلمة ورمز، نخفيه بعضنا عن بعض، كان هذا وكأننا تلاقينا منذ سنين وأحب وعشق كل منا الآخر. لم تكن لدينا رغبة إلا فى الوصال الدائم، لم ندع كلمة واحدة عن حياتنا المادية تعكر صفو كأسنا، ففى مثل هذه الجنة لا ينبغى التفكير فى المطعم والملبس . قررنا أن نذهب أحد أيام الأسبوع القادم دون تحديد، إلى ولاية...، وهناك نتزوج متحررين بذلك من العادات والتقاليد المعمول بها فى جميع الولايات.

عندما افترقنا، تأوهت "ليدا" قائلة: إن قلبى يخفق. فقلت: لماذا تتأوهين؟ قالت: أخاف أن تنظر إلى ألف بنت من الآن وحتى الأسبوع القادم... فضحكت وقبلت يدها وأسرعت أحمل لأمى كل هذه الأنباء السارة.

لسوء الحظ كانت أمى قد اشتد عليها المرض فى تلك الليلة، حتى إنها لم تفتح عينيها فى وجهى، فى الغد حملتها إلى المستشفى ورافقتها بناءً على أمر الطبيب. لو لم يكن الشوق لرؤية"ليدا" ما كنت

أعانى حزنًا على مرض أمي، لكن ذلك الحزن الذى كنت أعانيه وحدى كل يوم في المستشفى، يصبح حلوًا فى كأس عشق "ليدا" وأنساه.

كانت العيون تتحير لرؤيتنا وذلك فى كل مطعم ندخله، عندما كنا نمر أمام مرآة كنا نتوقف لا إراديا، ويبتسم كل منا للآخر استحسانًا. كان كل عملنا هو العشق والمغازلة، كان كل منا يمدح جمال الآخر، وكل منا مشغول بالآخر.

كانت "ليدا" تسألنى كل يوم عن قصص عشقى السابقة، كنت أتحدث بالقليل عن "هلن"، "مادلن" و"أليس" كانت تقول: "إننى أخاف منهن، أخاف أن يشتعل هذا العشق بقلبك يومًا بعد أن خمدت نيرانه، فيحرق ببذر وجودى.

كان هذا كأنها تقول: أخشى أن تمل يومًا من الجمال والسعادة وتتألم! فكنت أتعجب من هذا الخوف، لكن لأنه دليل حبها الشديد لى لم أبد اهتمامًا، بل كنت أزهو بنفسى فى الخفاء من الاستحواذ على مثل هذا العشق والمحبة.

كان والد "ليدا" يمتلك مصنعًا للنجارة، وكان رجلاً عاقلاً مقتصدًا، وكان يتمنى من الله أن يتزوج "ميشيل" الثرى من ابنته، أما "ليدا" فكانت متأكدة أن والدها لن يقبلنى زوجًا لابنته لأننى فقير، لهذا كان قرارنا بأن نذهب إلى ولاية... ونتزوج هناك بحرية.

كنت أتمنى أن ترى أمي "ليدا" قبل الزواج في المستشفى حتى تبارك زواجنا، لكنها قالت: لا أريد أن تراني "ليدا" لأول مرة وأنا على هذا الحال. وعندما قلت إننا سوف نسافر إلى ولاية... غدًا لنتزوج، سال دمعها، وبعد فترة وحين استطاعت أن تتحدث قالت: رجائي الوحيد من الله هو أن يمنحك السعادة والخير.

أغمضتْ عينيها وحولت رأسها عني، فقبلت يدها ووجهها بهدوء وذهبتُ.

***

سافر معنا أنا و"ليدا" ثلاثة أصدقاء على نفقاتهم حتى يكونوا شهودًا على زواجنا، ولأنه لم يكن لدينا ما ننفقه على إقامة حفل زواج بإمكانياتنا القليلة، ولأنني ينبغي أن أزور أمي في المستشفى كل يوم، قررنا أن نعود بمجرد أن تنتهي مراسم الزواج، لكن حدث ما أفسد خطتنا وترك بقعة سوداء على لوح خاطري

تفاصيل ذلك هي أننا دخلنا إلى مدينة... وذهبنا لنعقد، لكن طال الانتظار حتى يأتي دورنا، فذهبنا وجلسنا في حديقة كانت أمام ذلك المكان على أريكة. فقام أحد الأصدقاء الثلاثة، والذي كان قد جاء معنا، مصغر اسمه "جيمي"، وذهب ليجلس على كرسي آخر بجوار شيخ مُسن. ولأنه كان كثير المزاح ولطيفًا، وقبل أن نعرف ماذا دار من مزاح وتفكير، كنا سعداء فرحين، لم يستمر ذلك أكثر

من ربع ساعة حتى جاء "جيمى" مع هذا العجوز وقال لنا: لقد لمحت بنظرة أن قلب هذا العجوز قد خفق لـــ"ليدا" فسألته، وتأكدت أننى لم أكن مخطئًا، فقلت إن هذه البنت أختى، فإذا كنت تريدها فهذا أمر سهل، لأن عقدها لم يعقد بعد، أعطيها لك. فضحك وقال: لو كنت شابا لكنت قبلت هذه الهدية، ولكنى حقا لم أر مطلقًا أسعد من هذين الزوجين، إن سعادتى هى أن آتى إلى هذه الحديقة فأساعد الشباب الذين يتزوجون ولا يملكون مالاً، فأقيم لهم الحفل والضيافة إذا وافقوا بالطبع.

فقال "جيمى": هذا هو ما حدث، فقد أنفق هذا الولد، وهذه البنت غير الجميلة كل ما لديهما من أموال واشتريا هذين القناعين الجميلين ووضعاهما على وجهيهما.

فضحك العجوز وتعهد بإقامة الحفل، ومهما تذرعت أنا بمرض أمى لا يوافق أحد منهم، وكانوا يقولون إننا سنسأل كل يوم عنها من المستشفى بالتليفون ونطمئنك.

أقـــيم حفل عظيم وشاركنا الحفل أكثر من مائة شخص، ممن لا نعرفهم، والتف حولنا رجل وامرأة، كانا يباركان زواجنا ويمدحان جمالنا، فتقدم شاب ودعى "ليدا" للرقص لكنها اعتذرت كما لم تقبل دعـــوة الآخـــرين الذين تقدموا لها للرقـــص، فقلت لها بهدوء: لماذا لا ترقصين؟ أنا منتظر أن تقبلى دعوة للرقص حتى أرقص أنا أيضًا مع أخرى.

فغضبت وقالت: أنسيت ما القرار الذى اتخذناه معًا! ألم نقرر ألا ننظر إلى شخص آخر إلا أنفسنا؟ فقلت: معك حق تفضلى لنرقص معًا.

احتضن كل منّا الآخر ورقصنا، وكان ذلك كأنهم قيدوا جسدى بجنزير، لكن لحسن الحظ كان هذا القيد الحديدى هو ساعدا "ليدا" الناعمتان.

بالصدفة كنا نجيد الرقص، وقد سعد الحضور برقصنا، لكنهم كانوا يتعجبون من أننا دائمًا نرقص معًا فقط، حتى سمعت شخصًا يقول لصديقه: إنهما فنانان ولا يعتبران الآخرين جديرين بالرقص معهما.

استمر ذلك الحفل وتلك السعادة حتى الصباح، ورغم أنهم اطمأنوا على حال أمى فإن قلبى كان يساوره القلق، وكنت على استعداد للعودة رغم أننى متعب ورغم عدم نومى. لكن مضيفنا العجوز و"جيمى" والأصدقاء و"ليدا" لم يوافقوا وجاءوا بتصريح من أمى بأن أبقى فى السفر ليومين آخرين، فقدم لنا هذا المسن دعوة للتنزه فى البحيرة والغابات المعروفة التى كانت على بعد عشرين فرسخًا من تلك المدينة، وحملنا إليها.

***

بعد غياب ثلاثة أيام رجعنا إلى مدينتنا، وذهبت "ليدا" إلى عملها حيث كانت تعمل بشركة طباعة، وذهبت أنا إلى المنزل كى أبدل ملابسى وأذهب لرؤية أمى بالمستشفى، وأستأذنها ضمنًا بأن أحمل "ليدا" إلى منزلنا، وذلك كما قررنا أنا و"ليدا".

فتحت الباب وصدمت، كان فناء المنزل مظلمًا، لاحظت أنهم قد أسدلوا الستائر! أشعلت المصباح فرأيت مظروفًا على المنضدة التى تتوسط الفناء المظلم فغاص قلبى، فتحت الرسالة بيد مرتجفة فرأيت أنه خط "مادلن" وقد كتبت:

عزيزى "ويليام"، لا أعرف هل ينبغى أن أقدم لك العزاء؟ أو التهنئة؟ لكن الرجل الشجاع يواجه الشدائد أولاً. صحيح أن الزمان قد أصابك بالشقاء... وصحيح أن كل الأمهات تموت، لكن أمك كانت غير جميع الأمهات، فقد كانت صديقتك ومرشدتك وشريكة أحزانك وأفراحك وسعدك وعينيك ونور قلبك. لم تكن أمك أنت وحدك، بل كانـــت أما للجميع، وكان فضلها على الجميع كالشمس والمطر، أنا لا أقدم العزاء لك وحدك، لكنى أقدمه لنفسى ولكل من رآها مرة وسمع عطر نفحات روحها. إلى كل من رأى ذلك التعامل والحركات الهادئة، تلك العيون الضاحكة العطوفة، وسمع ذلك الصوت الدافئ الحانى، كل من أخمدت نار غضبه وثورته. إلى كل من رأى ذلك القوام الرشيق، وذلك الوجه الجميل الجذاب، لقد كان طائر روحها يتخلص من كل ما لديه من متاعب، ويتخذ له عشا فى روضة

وجودها كل من كان جديرًا بنعمة حديثها، لأنه كان كمن وجد مفتاح حل مشكلاته أو وجد تركيبة كيميائية يصبها على كل أحزانه، فيصير سعيدًا، وعلى كل حقد وكره فيصير محبة وخيرًا.

تتساءل: لماذا أصف أنا ذلك الوجود الملائكي لك، لأنك كنت قريبًا منها، من جبل الجلال الوقار والخير هذا، حتى إنك لم تستطع أن تراه كله، لكني كنت بعيدة فكنت أراها جيدًا أتعرف لماذا كان المرض تزداد وطأته كل يوم؟ دعني أقول لك، لأنها كانت تعمل في المصنع ليلاً أيضًا فتحصل على أجر حتى لا تبيع تلك التحف الفنية التي تحبها أنت، أي أنها كانت تنثر روحها ذرة ذرة تحت قدميك، ولم تجعلك تعرف، لكنها أخبرتني بسرها.

أكنت تطلع على ما بقلبها لك من آمال في سعادتك ؟ أنا كنت أعرف أنها تحترق ولا تتكلم، كانت لا تريد أن تؤثر في اختيارك برغبتها، كانت تميز بين الخير والشر بنظرة واحدة، لكن لسانها لم ينطق بفحش مطلقًا. أنا كنت أعرف كل ذلك لأنني كنت موضع أسرارها، أنا فخورة بذلك وعزائي الوحيد هو أن واحدة مثلها طيبة الوجود مقدسة، قبلت أن أكون كذلك.

كنا معًا كل يوم، إذا لم تسنح لنا فرصة اللقاء يكون ذلك بالتليفون، كانت تحكي لي كل ما بقلبها، كنت أنت محور خيالها، كانت دائمًا تفكر فيك، تتحدث عنك وتتشاور معي. كنت أشاركها

الرأى، ودائمًا أقول لها دعى "ويليام" يكون حرا فى الحياة فيختار زوجته بحرية، كنت أتمنى ألا تتحدث معك عني بشيء مطلقًا، وتدعك وتفكيرك وأوهامك بالنسبة لى.

كنت أعودها بالمستشفى كل يوم، وفى الليالى الأخيرة كنت أجلس على فراشها حتى الصباح. كانت ليلة زواجك تلك هى آخر ليلة لها، جاء القسيس ودعا لها وذهب، فى تلك اللحظة الأخيرة، قالت: اتصلى بـــ"ويليام" بالتليفون وأخبريه أن حالتى جيدة، لا أريد أن يفسد حفل زواجه لموتى، ليتنى كنت أموت مائة مرة، ويسعد هو بهذا الزواج.

فى الغد اتصلت كما أمرت أمك حتى تظل ليومين آخرين فى السفر، لم أرد أن أنغص عليك سعادتك بموت الأم، أنهيت أنا مراسم التشييع والدفن بما يليق بتلك العظيمة، على نفقتى الخاصة، كان أكثر من مائة شخص يسيرون وراء الجنازة، صببت الدمع بدلاً منك على ثراها. قررت أن يكون مزارها فى أعلى نقطة بمساكن القبور... حتى تكون صافية، وتستطيع أن تراك من ذلك العلو.

دفعت لمحل... وأمرت أن يصنعوا لها تمثالاً من أجود أنواع حجارة المرمر، عندما يكتمل تنصبه أنت كما فى المراسم والعادات.

أتمنى من الله أن يكون قد رزقك بملاك رحمة، كى يسهل عليك تحمل هذه الفجيعة، كما أتمنى أن تكون "ليدا" هى ملاك الرحمة

هذا، والرفيقة والزوجة التى تصل بك إلى السعادة، فإن كان كذلك فأنا أهنئك. أنت طيب رقيق وتستحق ذلك، طينتك مخلوطة بالخير، إذا كنت مغرورًا كثير التفاؤل فالذنب ليس منك، بل هو من الطبيعة التى خلقتك أجمل من الجميع.

كنت أعرف أنك قد أخذت على بعض الأخطاء والعيوب، لم تطلب أكثر من الجمال، وذلك هو العيب الحقيقى الذى أخذته على، لم يطاوعك قلبك أن تقول عنى إننى قبيحة، وافترضت عيوبا أخرى حتى لا تجرح مشاعرى. أعرف أنك انتظرت طويلاً، ربما أنهض من النوم ذات مرة على هيئة حورية ملائكية، أو ربما تعتاد أنت على قبحى، حاولت أن ترى نفسك أقل وسامة بل اختزلت رغبات قلبك حتى يرضى بى، لكن أيًا من هذا أو ذاك لم يتيسر...

أعرف أن قلبك كان يحترق لحالى، وأنك قد أخذت تلك العيوب عنى من هذا المنطلق، حتى تسعدنى أولاً، وتعتقد أن معك حقا ثانيًا، وإلا فإنك تعرف جيدًا أننى لم أختر"موريس" مطلقًا لخطبتى، ولن أحب أو أعبد أحدًا طوال حياتى إلا أنت.

لكن ليسترح ضميرك ويهنأ وجدانك، فقد وصلت إلى ما أتمنى، وأنا أسيرة فضلك، فقد سمحت لى بالنزهة فى رياض وجودك، أوصلتنى إلى ما أتمنى. لقد ملأت من هذه الرياض ما يكفى العمر لعينى وخيالى وقلبى من الصفاء والجمال والحسن، ولم يعد لى

مطلب آخر من الحياة. لقد كانت كل لحظة من لحظات العشق المثير للعيون هذاء، وصوتك الأثير، تبدو بوجدانى شعرًا ورسمًا ولحنًا جديدًا، سيكون كل وقت أمضيته مع وجاهتك هو شعر ولحن أكثر عذوبة وجمالاً. سأعيش على ذكرياتك وأسعد وأهنأ عمرًا، كما سأجلس لياليَ مع خيالك لرؤية الأودية والغابات والبحيرات، وسنستمع إلى حديثهم، على أنغام ترنيمة الطيور ولحن النسيم، الذى يهب على أغصان الأشجار، وسنغنى معهم...

لتحسدنى على حالى، لأن الدميمات يفهمن دقائق الشعر ويستمتعن بتحمل الصبر، والتوافق مع الأحزان، لكن المغرورين بالجمال محرومون من ذلك.

أنتَ ملكى، روحى وروحك قد تزوجتا، لن يستطيع أى قانون أو سلطة أن يبطل هذا العقد وزواج الأرواح، عجبًا . كم أحسنت أن لم تطلبنى للزواج، آه، لو كنت فعلت هذا الخطأ لكنت أنا اليوم محرومة من هذا العشق الإلهى، لأنك لم تر بعد جمال الروح، أنت أسير الظاهر، لم تجد عندى كل ما كنت تطلبه، وقتلت روحى وجسمى بهذا الحزن. لكنى الآن أكثر حياة عن ذى قبل، لأننى أرى وسامتك ومحاسنك أكثر وضوحًا، وأسمع صوتك أكثر عذوبة.

لم أكن أبكى مطلقًا قبل ذلك، كنت أعتقد أن عينى لا تعرف منبع الحب والعطف، أو أن فى صدرى حجرًا يقف حائلاً أمام هذا

المنبع الفياض، لكن ذلك الحجر تحطم بسبب تلك القبضة التى ضربت على صدرى، ففاض المنبع حتى إنه لن يتوقف ثانية، كم يسرى هذا الماء العذب فيسقى رياض كيانى وزهوه كل يوم!

ربما تقول: لماذا لم أتحدث معك بهذا الكلام عندما كنا معًا! كان ذلك لأن عدم النزول عن عرش الوقار وحفظ النفس عليه كان عندى أغلى من كل شيء، كما أننى لم أكن أتخيل يومًا أن أبكى أو أشكو فى هذه الدنيا، عندما وصلت إلى العالم الآخر، أضع رأسى فى حضن أمى وأبكى قائلة أمى الحبيبة... لماذا جئتِ بى هكذا دميمة، أو لماذا منحتنى هذا القلب الرقيق...

يا لها من حسرة لدى أن أبكى أمامك وأشكو، لكن لحسن الحظ أننى لن أرى وجهك مرة ثانية فأخجل، لأنك عندما تقرأ هذه الرسالة، أكون أنا قد غادرت هذه المدينة، ولن أعطى لك عنوانًا لى مطلقًا. أحمل عشقك معى حول العالم، حتى يصير أكثر شاعرية، وينضج ويزداد سموًا لرؤية البحار والصحراء والبلاد والناس بعاداتهم وتقاليدهم العجيبة، أيضًا ربما يحدث شيءٌ ويأسرنى هذا العشق بسوانحه وخاطراته، فيكون جديرًا بالنقل والحكاية، فتبقى ذكراى فى الوجدان.

لا يـــزال أمـــامك عـــام حتى تصبح مهندسًا وتعمل، وحتى لا تضيع تضحية أمك هباء، التى كانت تعمل ليل نهار من أجلك

لتأتى لك بالمال، حتى فقدت روحها فى النهاية بعد المرض، فأنا أرفق لك مع هذه الرسالة حوالة بمبلغ... تكفى لنفقتك أنتَ وزوجتك لمدة عام، بالطبع تعرف أن والدى كان ثريًا، وقد ترك لى إرثًا كبيرًا، لهذا فإنك ستقبل منى هذا المبلغ بضمير مستريح. كما أضع على هذه المنضدة فى صندوق آخر حبة من الألماس، كى تعلقها برقبة "ليدا" فتتذكرنى كلما رأيتها.

لابد لى أن أخبرك أن أمك قد فتحت عينيها بمشقة ليلة رحليها وقالت: أخبرى "ويليام" بأنه ما دام لم يعالج مرض الغيرة وسوء الظن بزوجته، فسوف تكون روحى قلقة عليه.

أنا أيضًا أتمنى من الله كل يوم فى ركن الكنيسة وفى الصحراء والغابة، أن يحفظك من شر الغيرة.

مادلن

***

أفقت لحظة وتنبهت إلى أن الرسالة بيدى، وأننى أقف فى فناء المنزل، وفهمت أن أمى قد ماتت، وأن "مادلن" لم تكن خطيبة لـــ"موريس" يومًا ما، وأننى ضللت الطريق بسبب حرقة عشقى! تعجبت لأننى لا أذرف الدمع، ولماذا لا يفر طائر روحى من الحزن والخجل؟ كيف أستطيع أن أحفظ نفسى ثابت الجأش، ولم أسقط كجسد بلا روح!؟ كأننى وحدى مع شيطان، شعرت بالخوف من نفسى

وارتجفت. كنت أرى أن هذا الشيطان قد فرح لوفاة أمه! ويستمتع لرحيل "مادلن"، يفرح بالنقود والمجوهرات التى أرسلتها له، ويضع كل ذلك تحت قدمى "ليدا"، يرى نفسه وقد جلس مع عروسه التى تشبه القمر وحدهما دون مزاحمة الأم، وبلا ألم العشق، فى سعادة وسرور، وقد نسى أحزان الدنيا!

صرخت قائلاً: لقد أخطأت يا أمي الحبيبة حين تركتك وذهبت وراء الخيال، كنت أعمى بسبب الغرور، لم أر روحك الرقيقة وهى تحترق من أجلى كالشمعة، كنت تحترقين! ليتك أخذتنى معك، حتى أقبل قدميك هناك وأطلب منك المغفرة...

بكيت قائلاً: "مادلن" العظيمة أيتها الملاك الطيب، أنا وضيع إلى درجة أننى لم أستطع أن أرى عظمتك، أنت يا من كنت تستطيعين أن تأخذى بيدى وترفعى من شأنى، ولا تبدين روحك العظمية لى! لماذا لم تدعينى أرى جمالك هذا كله، وأصبح مجذوبًا ومحوًا فيكِ! لماذا رحلت بلا عنوان وتركت آلام خجلى دون دواء!؟ لماذا لم تبق كى ترى كم أن شربة الوصال مستساغة فى فمى من مرارة الحزن والخجل!؟ لكن كم كان انتقامُك منى شديدًا، هذه الأموال والمجوهرات التى تركتها لى أكثر إيلامًا من كل لوم وقذف...

بينما كنت أبكي وأشكو هكذا، كان شيطان نفسي يضحك من هذا الكلام... ويصيح...، كنت قد فقدت توازني الداخلي، فكنت أسير خطوة للأمام، ثم أعود خطوة للخلف، وأمسك بالمنضدة والكرسي حتى لا أقع. أردت أن أرفع الستائر، وما إن سحبتها حتى تمزقت ووقعت، أدركت أنني لن أستطيع أن أدير شئوني وحدى، فخرجت من المنزل، وقضيت وقتًا طويلاً في المحلة والشارع حتى خرجت "ليدا" من العمل، رأتني وسألت متعجبة: لماذا أنت مضطرب هكذا؟! قلت: لقد ماتت أمي.

لمحت ظل ابتسامة تتهلل في وجهها، لكنها سرعان ما أخفتها وقالت: إن حملي سيكون أثقل وأجمل لأنني ينبغي أن أكون لك الآن زوجة وأما في الوقت نفسه. أمسكت بيدي وعدنا إلى المنزل معًا. أعطيتها الورقة التي كانت "مادلن" قد وضعتها على المنضدة وقلت: اقرئي. فمزقت الورقة وألقت بها على الأرض وقالت بصوت مقبوض من البغض: أنا لا أستطيع أن أرى أخرى قد كتبت لك رسالة، عليك أن تنسى العشق القديم. فاضت عيناها بالدمع فحولت الرأس عني.

مع أنها عندما مزقت رسالة "مادلن" قد مزقت قلبي أيضًا معها فإن دموع "ليدا" كانت هي البلسم الذي يداوي تلك الجروح، فقلت: ألا ترى أن سُكْر عشقك قد أنساني أمي! أنا ليس لديّ معشوق غيرك،

ولم أعبد صنمًا، الأخريات كنَّ عبارة عن نور لطريقى يهدينى إلى معبد عشقك.

***

كان كل ما بالمنزل من باب وحائط ومنضدة وكرسى، الجميع يبكى وينوح لفراق أمى، ويطالبوننى بيدها المدلّلة، كنا نحن سعداء بخمر العشق والتوفيق حتى إننا هربنا يومين ثلاثة، هى من العمل وأنا من الدراسة.

صنعت من حبة الماس تلك التى أرسلتها لى "مادلن" قلادة، وقدمتها لها فى صبيحة يوم أحد عندما ذهبنا إلى الكنيسة، وسألت الله ألا تسأل من أين أتيت بهذه الجوهرة، لأننى ربما أجيب فيتألم خاطرها، لكن إذا سألت فلابد أن أقول الحقيقة، لأننى لم أكن أنطق بالكذب حتى هذه اللحظة، كنت أخشى أن يتسلل شيطان الكذب إلى عشقنا وحياتنا الملائكية، لم أكن أعرف أننى ينبغى أن أتوسل إلى ذلك الشيطان ذات يوم، للحفاظ على ذلك العشق وتلك الحياة!

ذات يوم عدت إلى المنزل مبكرًا فرتبت منضدة الشاى بشوق وسعادة، عادت "ليدا" من الشركة وألقت بنفسها بين أحضانى، لكنها كانت باردة حزينة بعكس كل يوم، فأمسكت بيدها وقلت: تكلمى... ماذا حدث؟ هل أنت مريضة لا قدر الله؟ قالت: ربما أكون قد تعبت من العمل الإضافى.

فاحتضنتها وأخذتها وأرقدتها على كرسى، وحملت لها الشاى والطعام، وكنت أمسح على يديها وقدميها، حتى أدارت الرأس عنى فجأة وارتفع صوت بكائها، فاضطربت وقلت: تكلمنى ماذا يبكيك؟ هل فعلتُ شيئًا؟

بعد لحظات من البكاء والتوسل لها قالت: رئيس هذه الشركة لدية فكرة سيئة عنى ويؤذينى، إن كنت قبلت خطبة "ميشيل" لكنت قد تخلصت من شر هذا الرجل الظالم الوقح، لكن ماذا أفعل الآن؟ فأنت لا تملك شيئًا، وأبى وأمى لا أجد طريقًا إليهما بعد أن عصيتهما وتزوجت منك، ينبغى أن أحترق وأشتعل...

فضحكت وقلت إن الألغاز ليست أسهل من هذا، لأننا لحسن الحظ لدينا ما يكفينا، حتى آخر فترة الدراسة، واعلمى يقينًا أننى عندما أنهى تعليمى سيكون لدينا دخل أكثر مما يلزم حياتنا، أنت يا من تعرفين أن فلانًا يطلب مشاركتى من الآن، على هذا فأنت ستكونين ملكة هذا المنزل من الغد، ولن يطلب منك أحد العمل والتعب حتى آخر العمر.

فقفزت وتعلقت برقبتى وقالت: إننى أكره كل رجال العالم إلا أنت، ولا أريد أن يكون لى اتصال بأى رجل.

كانت تقول وتبكى من السعادة، وعدنا إلى سعادتنا ونهلنا من السرور والتوفيق.

كأننى ضربت بسوط من حديث تلك الليلة، أى من الإشارة التى أشارتها "ليدا" إلى فقرى، فاستيقظ كل ما لدىّ من قوة عمل وهمة، فكنت أذاكر أكثر، لكن لسوء الحظ لم تدعنى "ليدا" أذاكر فى المنزل بكامل طاقتى، فكانت تأتى وتخفى كتابى وتنظر إلى وجهى بعشق، أو تجذبنى إلى أحضانها وتقبّل وجهى ورأسى قبلات تبعث بى الروح، كى تحملنى بكل وسيلة من رواء المكتب وتجعلنى ألعوبة لها.

كانت تقول: عندما تذاكر أنت أشعر بالإعياء أكثر، حتى تنام أو تجلس صامتًا، أو تتحدث معى، لأنك حين تقرأ فى الكتاب وتتركنى وحدى، فكأنك تتحدث مع أخرى.

***

فى المساء أقام أصدقائى بالكلية حفلاً على شرف زواجى أنا و"ليدا"، كانوا يطلقون علينا أجمل عروسين لذلك العام، لكن "ليدا" لم تقبل دعوة أحد من الأولاد للرقص، فلم ترقص إلا معى واعترض الجميع وأقاموا ضجة.

فوقفت "ليدا" على كرسى وقالت: أصدقائى الأعزاء، لا تتعجبوا ولا تغضبوا، فإذا كنا لا نرقص معكم فالسبب هو أننا لم نشبع بعضنا من بعض بعد، ولأننا لن نشبع مطلقًا فللأسف لن نرقص معكم مطلقًا.

فذهب أحد زملاء الدراسة وهو شاب وسيم وظريف، ناحية الكرسى وقال إن هذا العذر يعجبنا فلنملأ كأسًا فى صحة هذا العشق الحار لكن... وأنا متأكد أننى سأرقص فى الحفل نفسه مع "ليدا" للأسف، لكن فى عام آخر...

فصفق الجميع وسعدوا، وأجلسوا إحدى الزميلات التى كانت تجيد العزف على البيانو، وقالوا لى: عليك أن تغنى. غنيت بكل شوق ورقة وشغف بعشق "ليدا"، كادت دموعى تسيل لو لم أمنع نفسى من البكاء.

كان الجميع يمدحون ويطلبون مقطوعة أخرى، بعد ثلاثة ألحان أو أربعة من العزف والغناء، تنبهت إلى أن "ليدا" تجلس فى ركن وتمسك رأسها بين يديها، بينما يقف البعض فوق رأسها. فاضطربت وسألت عن حالها قالت: إن رأسى تؤلمنى بشدة، هيا بنا نذهب.

شايعنا أصدقاؤنا بكل أسف، عدنا إلى المنزل. ذهبت واشتريت لها ما تذكرت من دواء وأحضرته. كانت قد وقعت على السرير وأخذت تبكى وكلما حاولت... كانت ترفض الدواء. أدركت أن لديها ما يحزنها، فاحتضنتها ورجوتها قائلاً: تكلمى بما فى قلبك... مم تتألمين؟!

أخيرًا... وفى أثناء البكاء والأنين قالت: دعنى أموت... ألم أفهم أنك عاشق تلك البنت التى كانت تعزف على البيانو؟ وإلا فلماذا كنت تغنى بحرقة هكذا! ألم أر بعينى كيف أنك لم تدفع البنت ذات الشعر الأسود من جوارك، هى عاشقة لك؟ ألم أر، ألم أر.

تحيرت واندهشت، فماذا أقول. فجأة قفزت من المكان، ونظرت فى عينى بحيرة وقالت: أرأيت كيف أصبحت مطلوبًا!؟ ترى.. كيف لا تستطيع الرد بكلام معقول من الخجل!؟

قلت: ليس من الخجل، بل هو من الشوق والسعادة والتعجب، وانعقد لسانى من السعادة لأن "ليدا" عزيزتى لا ترى فى الوجود إلا أنا، وأننى محور اهتمامها وكل ما يشغل ذهنها، لكن تعجبى لأن نار العشق التى تحرقنى، ليس بها ضوء بالقدر الذى يأتى بالجنة إلى عين "ليدا".

قالت: فلتقسم بهذا العشق المحرق، بأنك لست عاشقًا لتلك البنت؟ قلت: مطلقًا... ثم وقفت وأحضرت المرآة وأعطيتها لها، قلت: هل أنا أعمى حتى لا أرى هذه الحورية الملائكية؟ الشخص الذى يستطيع أن يرى هذه الحورية ويحتضنها، إنه ينفرد بين مخلوقات الله بامتلاك نعمة كهذه، فكيف يستطيع أن يتمنى أخرى غيرك؟ أليس ذلك هو الجنون . هل تبدو علىّ سمات الجنون؟

بالتدريج احتقن بكاؤها وضحكت وأخذتنى بين أحضانها، قضيت ليلة تعادل عمرًا. فى صباح الغد لم تدعنى أنهض من السرير، استسلمت أنا أيضًا لذلك حتى مضى ميعاد الكلية، قامت وأعدت الإفطار وأحضرته إلى السرير، كانت تضع كل لقمة فى فمى مع قُبلة، أدركت من الحب الذى أغدقته علىَّ والنظرات المليئة بالأمانى، أن لديها طلبًا آخر. قلت: إن أعز ما لدى كل شخص هى روحه، أنتِ إذا طلبت روحى، قدمتها لك دون توانٍ.

ألقت الرأس لأسفل وصمتت للحظات، فعرفت أن هذا الطلب صعب، فارتعش قلبى لكنى قلت: تكلمى فوجودى تحت أمرك.

فقالت: بصوت منخفض ملىء بالرجاء: لدى رجاء لك، هو ألا تذهب إلى الكلية ثانية.

غضبت وسألتها: لماذا؟ فنظرت نظرة ممتزجة بالملامة، وقالت: أنت نفسك تعرف لماذا، تعرف أنك كم تحب تلك البنت عازفة البيانو، تعرف أن سوداء العينين تموت من أجلك... تعرف...

ضحكت وقلت: ما هذا المزاح! فصرخت قائلة: لا تدعى الغباء، تتصور أنك تستطيع أن تخدعنى؟ ألم أر بعينى أنك ليس لديك شعور، ولا تميز الجمال من القبح، رغم امتلاك امرأة بجمالى، تنثر عشقها وكيانها تحت قدميك، تعشق تلك البنت القبيحة سيئة القوام! إن

خالتى المسكينة كانت هى أيضًا أسيرة زوج عديم الشعور مثلك، رغمِ كل ما لديها من جاه...

فنهضت ووقفت عند قدم تمثال المسيح، وقلت: أقسم بحضرة المسيح أننى لا أحب أحدًا إلا أنت. وأنك قد أخطأتِ، لو أن ملاكًا من السماء عشقنى، فلن أرضى به بديلاً عنك.

فبكت قائلة: كذب. كذب!

كنت لم أكذب طوال عمرى قط، ولم أسمع ما لا يليق أيضًا، إن كانت أخرى غير "ليدا" هى التى قالت ذلك لكنت تركتها إلى الأبد، لكنى أحب معشوقى أكثر من روحى وشرفى، لم تكن هناك حيلة إلا التسليم، توسلت لها وبكيت وأخذت أنوح، ورجوتها حتى هدأت واطمئنت قليلاً. قلت: سأفعل كل ما تقولين. قالت: لا تذهب إلى هذه الكلية. قلت: لن أذهب، لكن أتخلف عن الدراسة وبقيت سنة واحدة؟ نتيجة ذلك أننى سأعانى من الفقر. قالت: أنا لا أخاف من الفقر، إنما خوفى هو من المنافس، ممن يحبك، ممن يعشقك...

أدركت أنه فى تلك الحالة، لا يستطيع أى عقل أو منطق أن يقاوم النار المشتعلة بقلبها، واستسلمت لا محالة.

***

بعد ذلك، قضينا أيامًا ولياليَ سعيدة، كنا فى الغالب نذهب للتنزه والفرجة، يد كل منا فى يد الآخر، فى الحدائق والغابات، كنا

نتـغزل ونتحدث، لكن كأن حجابًا أسـدل بيننا، كنت أشعر أن "ليدا" لا تسـتطيع أن تـرى جيدًا من وراء ذلك الحـائل وتـعرف، وأنا لا أستطيع أن أدرك أسلوب تفكيرها ومنطقها، لكنى كنت على أمل أنها سرعان ما ستمزق هذا الحجاب، وستُفتح أمامنا جنة الود والصفاء، التى كانت لدينا مرة أخرى.

كنت أحيانًا أبحث عن ذريعة لأعرف هل بقى شيء فى خاطر "ليدا" من سحب سوء الظن السوداء حتى الآن، فأشير إلى أوهامها الطفولية هذه، وللأسف كانت بخلاف ما أتوقع وأتمنى، فقد كانت تمطر بغزارة على رأسى فى كل مرة من تلك السحب الداكنة، وفى كل مرة يكون مخفيا أكثر من المرة السابقة، كانت تبكى وتقول: إننى كنت أعرف... أعرف أنك تعشق تلك البنت القبيحة... واضح من وجهك الذابل ونظراتك المضطربة...

كنت أقطع الحديث بالصمت مضطرا، وأغير مجرى الحديث بموضوع آخر. ذات ليلة هزتنى بقوة وأيقظتنى من النوم، نهضت مضطربًا، وسألتُ: ماذا حدث؟ قالت: رأيتك وكنت تتلوى على نفسك وتعانى حزنًا على تلك البنت القبيحة، فأيقظتك حتى لا تموت...

زأرت كالنمر الجريح، ذهبت يدى كى تقبض على رقبتها وتعتصرها، فجأة أشرقت على قلبى إحدى نظرات "مادلن" الملائكية كعين الشمس، وأنزلت يدى ثم نهضت وذهبت إلى حجرة مكتبى وجلست، أخرجت رسالة "مادلن" التى كانت "ليدا" قد مزقتها إلى

قطعتين من الجعبة، بينما كنت أقرأها دخلت "ليدا" وسحبت الورقة من يدى ومزقتها مائة قطعة، كانت تصرخ قائلة: أيها الظالم، أيها المعدم، أنت عاشق "مادلن"، وتريد أن تطلقنى وتتزوجها، لماذا منعتنى أنا المسكينة عن "ميشيل" الثرى!؟

أخذت تبكى وتصرخ حتى تعبت وأخذها النوم، فى صباح اليوم التالى عندما استيقظنا من النوم، لم يكن بفكرها أى أثر لأوهام ليلة أمس، تحدثنا وسمعنا واستأنفنا عشقنا وحياتنا.

لم أستطع أن أصدق أن "ليدا" تضطرب وتفكر فى الشر هكذا بلا مبرر، تأكدت أن تلك الأحوال العجيبة هى نتيجة خطأ فعلته أنا بها. كنت أقــول لنفــسى: لابد أنك عاملــتها بسذاجة أو قلت كلامًا لا يتصور فاحترق قلبها الرقيق، هذه السحب السوداء، التى أشعلت عقل "ليدا" ومشاعرها هى بسبب النيران التى أشعلتها بقلــبها، وأنت لا تدرى.

كنت أعتبر أن تلك الحرقة وسوء الظن دليل على قوة العشق، وكنت أتحمل كل هذه الآلام والأذى وأغفر لها، كان أملى هو أنها ستمزق تلك السحب السوداء اليوم أو غدًا، وستضىء شمس الحقيقة كل هذا العشق والعبادة والتضحية منى بعين "ليدا". وتصورت أننا يمكن أن نبدد غبار الحزن ونحقق أحلامنا بالسفر والسياحة، فقلت لها تعالى نسافر. فرحت وقالت: أنا أشكرك، تريد أن تسافر لتنسى عشق

"مادلن" والأخريات، تريد أن تضحى من أجلى، واضح أنك تحبنى أكثر من الأخريات...

***

سافرنا وقضينا الوقت فى سعادة. "ليدا" نبع فياض بالذوق والفن، لكن ليست لديها مهارة فى أى فرع من فروعه، لكنها تقدر الذوق ورقـــة الجمال، وتستمتع بها أكثر من كثير من الفنانين. هى لا تستطيع أن تعبر عن لوحة فنية أو منظر طبيعى مثل "مادلن"، بسحر البيان، لكن تلك النظرات العميقة التى تنظرها إلى الجمال، ذلك الفرح والسعادة التى تبدو على وجهها، تلك الكلمات القليلة التى ترد على لسانها من السعادة، هى كتاب نقد وفن له ثقله.

كنت أرى الأشياء الجديرة بالرؤية وأفهمها وأستمتع بها عن طريق إرشاد عينيها، لكن متعتى الكبيرة هى أن أراها سعيدة مسرورة. مع هذا، فأحيانًا كانت تبدو بعينيها لمحة من حزن، فترمقنى بغضب حتى إنها ذات ليلة أقامت أحد المآتم، كانت تبكى وتقول: هل أنا عمياء، لا أرى كيف كنت تغازل البائعات، وكيف كنت تنظر فى المحلة والشارع إلى البنات الجميلات؟!

من الآن فصاعدًا لن أتعامل مع البنات والسيدات من الشباب، وإذا كان لدى سؤال أرجع إلى السيدات من الشيوخ.

هكذا شغلتنى وجذبتنى أحوال "ليدا"، حتى إننى فقدت معنى الحياة، بمعنى أننى تركت لها مسئولية الإنفاق، ربما كى أصرفها عن الخيال الواهى، فأعطيتها كل ما كان لدى من أموال. فى كل مكان كانت تأخذنى إلى أفخم الولائم، وتطلب أغلى أنواع الطعام وتشترى لنا الملابس الفاخرة.

ذات يوم رأيت "ليدا" سعيدة ضاحكة، وكان وجدانى مليئًا بالأمل والرجاء، فأخذت أغنى كشخص تخلص من مصيبة عظيمة، أخذت أشرح قصة ألمى وسعادتى بألحان سعيدة ذات شجن، وأناجى السماء والأرض. كانت نافذة الحجرة المواجهة لنا نصف مفتوحة، فرأيت أن شخصين قد وقفا وراء ستارة شبكية ينصتان لغنائى. فكل ما استطعت أن أفعله هو أننى رققت من صوتى، حتى يدركا حالى ويدعوًا لى.

لم يمض كثير حتى فُتحت نافذة أخرى، وأخرجت سيدة مسنة رأسها ووقفت بوضوح تستمع. فجأة قفزت "ليدا"، وبينما كانت تغلق نافذة الحجرة بقوة، رشقت هذه السيدة المسكينة بما لا يليق، حتى إننى تألمت من الخجل وأخفيت رأسى بين يدى.

فصرخت قائلة: لا تخفِ رأسك، إذا كان قلبك يحترق لحال هذه الفاحشة فلماذا جلست، انهض واذهب فهى فى انتظارك، ألم أر

كيف كنتما تنظران وتشيران بعضكما إلى بعض؟ ألم أفهم ماذا قررتما معًا...؟

في ذلك اليوم أقامت مأتمًا جمعت فيه من الهراء والظلم والبكاء والأنين ما لم يسبق له مثيل، وانتهت هذه الثورة بألا أغني بعد ذلك طوال عمري.

ذات يوم أخبرتني أن نقودنا قد نفدت، ليس لدينا أكثر من ثمن تذاكر عودتنا، أي أن نفقة عام كامل أنفقتها في شهرين، ولم يبق لدينا وسيلة للمعيشة والتعليم! أي أن كل ما كنا قد رسمناه من آمال وأماني لنا في الحياة، كان كله على الماء، ومن الآن فصاعدًا قد جلسنا في سفينة بلا دفة، ولا نعرف إلى أين ستحملنا، ومتى ستتحطم!

من العجيب أنني سررت لسماع هذا الخبر، ولرؤية المنظر المفزع للمستقبل، لأنني رأيت أن الأحداث ستزداد شدتها، وستكون "ليدا" أكثر انشغالاً بهموم الحياة، وربما تنسى مرض الغيرة وسوء الظن نهائيا.

ضحكت وقلت: متى أخاف أنا من الحياة، عندما تكونين أنت لا تحبينني، إن الأضرار الأخرى إذا كانت بحجم الجبل فهي لا تخيفني. سقطت بين أحضاني وأخذنا ننهل من العشق والحرقة والتوفيق. كانت تقول اليوم الذي أكون فيه لا أحبك سأقتل نفسي!

وفى اليوم الذى تتركنى فيه أنت وتذهب لأخرى سأموت، ولكن ماذا أفعل فإن قدرتى لا تتحمل كل هذا...

***

رجعنا إلى مدينتنا وقمنا ببيع اللوحات الفنية ومتاع المنزل، كى ندير شئون الحياة. كان كل الدخل ينفد من يد "ليدا" كالسيل الجارى، وكنت أنا أستمتع بهذا، على أمل أننا سرعان ما سنواجه المشكلات، وستتغير هذه الحياة والأحوال إلى حد ما.

ذات يوم قالت: اذهب إلى دكان فلان واشتر لنا خبزًا. فذهبت واشتريته وأحضرته، سألتها: لماذا أرسلتنى إلى ذلك الدكان، فى حين إنه كان بالقرب منا خباز آخر؟

فضحكت بمرارة وقالت: هل استمتعت؟ معشوقة جميلة؟ سألتـــها: أى محبوبة؟ قالت: العجوز التى تبيع الخبز... أتعتقد أننى لا أراك وأنت تنظر إليها بعشق بنظرة من طرف العين!

ثم جلست على الأرض وأخذت ركبتيها تحت إبطها، وتبكى وتئن قائلة:... يا إلهى أمنح هذا الرجل الإحساس. ماذا ينقصنى وأنا فى غاية الجمال والشباب حتى يجرى وراء السيدات المسنات!

كنت أنا أيضًا أبكى لسوء حظى وأضرب رأسى، استمرت هذه الجنازة ساعة، حتى خارت قوانا وصمتنا.

وبدلاً من أن يصرف "ليدا" عن الأوهام الواهية، ذلك المنظر المخيف للفقر وسوء الحظ، جعلها أكثر ظلمًا وقليلة الصبر أكثر، فكانت تنصب الجنازة تلو الأخرى وبأسرع مما سبق، وحتى عندما كان لا يسعفها موضوع كانت تتخذ من عيوب الماضى أساسًا وذريعة، فكانت تقول مثلاً: لم أنس لك تلك النظرات العاشقة فى ذلك اليوم فى دكان فلان لتلك... أتذكر أيضًا ذلك اليوم فى مدينة... عندما كنت تشترى الفاكهة من تلك السيدة العجوز، وكان قلبك قد خفق لها...

عندما كنت أود الحديث عن المال والحياة، كانت تصرخ قائلة: أنا لا أخاف من المستقبل، ولا من الفقر، إن أملى ومستقبلى هو الموت، وبهذه الطبيعة من عدم الإحساس والشهوة التى لديك فلن يكون دواء ألمى إلا الموت.

كنت أملُّ بعض الأيام من هذا البلاء والضجيج، فكنت أنزع نفسى بالقوة من بين يدى "ليدا"، وأسير فى المحلة والشارع كالمجنون، أصرخ مخاطبًا المارة فى قلبى قائلاً: أيها الناس، ليرحم أحدكم حالى لوجه الله تعالى، ويدرك آلامى، فأنا لا أستحق هذا البلاء وحدى...

يا له من بلاء! يا له من ألم سقيم، أن أتصور الحياة بدون "ليدا".

مستحيل بالنسبة لى، والحياة معها كانت أصعب من كل عذاب، كنت فى روضة الجنة مع الحورية، فجأة جاء شيطان وجلس مكان حوريتى. ليست لدىّ طاقة حتى أهرب من روضة جمال "ليدا"، ولاالقدرة على أن أجعل هذا الشيطان ملاكًا مرة أخرى.

رغم أننا لم نكن نبتعد عن بعضنا فى اليوم والليلة لحظة واحدة، كان هناك بحر يفصل بيننا، بحر مخيف وطوفان لا ينتهى إلا بأمل الغرق والفناء فيه. كانت تستقبل البحر الهادر وضعف قلب العاشق الدامى وقسوة عدم الحب كشىء واحد! فما أكثر الليالى التى كنت أنهض فيها وحدى وأقضى بمكنون قلبى ببكاء بلا صوت، وصراخ صامت، كنت أنثر تحت قدم " ليدا" كل ما بوجودى من محبة وعبادة وضعف وأنين، لكن كانت هى لحسن الحظ نائمة، وإلا ركلت هذا العشق مرة أخرى.

أحيانًا كنت أشعل المصباح حتى أشاهد عدوى مصاص الدماء، وأرى جيدًا السجان الذى يقيدنى ويعذبنى بجنزير عشقى المحرق. عندما كنت أرى ذلك الجبين الوضاء وتلك الأهداب السوداء، التى تسلب الروح، وتلك الشفاه الجديرة بالقبلات، كنت أطبع قبلة على تلك اليدين والساعدين اللذين يعذبانى. وعندما كنت أسمعها وهى تبكى فى أثناء النوم وتتكلم بكلمات متفرقة، كنت ألعن نفسى قائلاً: لماذا أسرت هذا الطائر الملائكى بجمال حسنك، وجعلته يعانى الفقر! ربما يكون كل ذلك بسبب الفقر، لأنك لن تستطيع أن

توفر لها أسباب المعيشة الجديرة برغباتها مثل "ميشيل"، إن كنت أنت أيضًا ثريا، ما كانت تبحث كل هذا عن ذريعة، ولا كانت تعترض...

عفوًا، فقد كنت أقول هذا الكلام لنفسي، حتى لا يرى أحد تلك الأحوال، ولا يعرف ماذا أقول.

أحيانًا كنت أهرب من المنزل كالمجنون، عندما أملُّ من الحرب المنزلية كنت ألجأ إلى أمي، أقبّل قبرها وأبكي وأنوح قائلاً: يا أمي لماذا رحلتِ وتركتني وحيدًا؟ متى تستطيعين رؤيتي وتبكين على حالي؟ انهضي وامنحيني الملجأ، دعيني أنام بجوارك، فأنا لم أكن محتاجًا إلى حضن الأم مطلقًا كالآن. يا أمي، أنتِ جعلت مني أصدق الأطفال، تعالي واسمعي كيف أسمع تهمة الكذب توجه إليَّ كل يوم!.. أنتِ علمتني الحب والوفاء والخير، تعالي وانظري كم يعتبرونني أكثر الناس خيانة وشرا!... أنت علمتني الوقار والرجولة والشرف، تعالي وشاهدي كيف أقبل على نفسي أنني أكثر عارًا ووضاعة، أقبل كل ما لا يليق، أقبل الذل أكثر من أي شيء آخر!... هل أستحق كل هذا لأنني كنت ثملاً مغرورًا بهذا الجمال الشيطاني، ولم أستمع إلى أمرك العقلاني والروحي...

أو كنت أذهب إلى باب منزل "مادلن"، وأدق الجرس، وأتوقع أن تفتح نافذة الباب العلوية وتقع نظرة "مادلن" الجذابة على كياني نصف الميت فلا تفتح النافذة في وجهي، لكنني كنت أسمع صوت

"مادلن" يقول: اذهب فأنت خربت عش العشق هذا، وشردت طائره في الصحراء، فأغلقت منزل المحبة والعشق هذا بوجهك، ماذا تريد بعد هذا من العش الذى بلا طائر؟ أو من الطائر الذى لا قلب له!؟

كنت أقرأ رسالتها التى كنت قد حفظتها، وأضرب نفسى بكل جملة كالسوط، ثم أعود إلى المنزل حزيناً باكيًا، بعكس ما كنت عادة أخرج منه آنذاك كالمنتصر المغرور. يا له من منزل! كقفص به أسد ينتظر فريسته!

رجعت إلى المنزل وقلبى يخفق، تُرى ماذا قررت "ليدا" الليلة، وما الحجة التى تذرعت بها لإقامة المأتم والمعركة، وإلى أى درجة سوف أسكت وأتحمل؟ كنت أتوقف فى الطريق كالتلميذ البــليد الذى لا يذاكر دروسه عندما يذهب إلى المدرسة، وقفت فى دكان صغير يبيع الجرائد، وأخذت أقرأ العناوين الرئيسية للجرائد. فجأة لفت نظرى صورةِ امرأة على غلاف إحدى الجرائد، وتعرفت عليها فاشتريت الجريدة وقرأتها، فاتضح أن صاحبة هذه الصورة قدمت نفسها باسم مستعار "دافنه"، وقد ألفت كتابًا موضوعه العشق الأول البرىء للبنات، نظرت جيدًا إلى وجه المؤلفة، رأيت أنها تشبه تلك البنت الأولى التى أحببتها فى المدرسة، حقا هى "هلن" التى أهديتها إلى منافسى كالزهرة!

كأن أسفل قدمى قد صار خاليًا، وسقطت فى هوة سحيقة، فكنت متحيرًا مضطربًا من فكر أننى فقدت جميلات الدنيا كلهن من يدى. لا أعرف كم طالت هذه الأحوال حتى أفقت، وتنبهت إلى أن هناك شخصًا يراقبنى ويتحدث معى، كانت عمتى.

هى أكبر من أختيها لكنها لم تتزوج، كانت تقضى حياتها فى الأعمال الخيرية، بقدر يسير من المال ورثته عن أبيها تعيش الحياة فى قناعة، وتعطى ما زاد من دخلها إلى مثيلاتها من محبى الخير، أى إلى كل من تقدم أعمالاً مشرفة لوطنها أو محلتها، أو إلى من لم تتزوج وتؤثر تمريض مرضاها من الأمهات أو الأخوات أو الإخوان.

ربما كنا لم ير بعضنا بعضًا منذ عام، فسألت عن أحوالى وقالت: لماذا يبدو لونك مكفهرًا هكذا؟ احكِ لى ماذا بك؟

كأننى وجدت أمى، كان صدرى يجيش بالآلام كالنهر الذى طغى، فاض على الجوانب. فقلت وحكيت، بكيت وتألمت حتى كانت الآلام العظيمة التى كنت أذكرها وأحكيها تتضاءل وتصغر. مثلاً: تذكرت أن "ليدا" قالت منذ عشرة إن أموالنا انتهت، وإننا لم يبق لدينا من بيع متاعنا إلا قطعتان، تذكرت أنه كان ينبغى أن أسأل "ليدا"، لماذا تنفقين كالمجنونة، وتلقين بعيدًا بكل ما نحصل عليه من أموال بسرعة؟

انتبهت فجأة إلى أننى قد جلست على كرسى بحديقة عامة بجوار عمتى، وأن يدى ووجهى مبللان من البكاء! كانت عمتى أيضًا تبكى. فنهضَت وأمسكَت رأسى بيديها وقبّلته وقالت: أتعرف أن الغرور بالجمال من الكبائر؟ عليك أن تدعو الله ليغفر لك.

كانت عمتى قد ذهبت وجلست أنا على الكرسى مدة طويلة، أنظر إلى صورة "هلن" فى الجريدة التى كانت بيدى، وأعانى آلام الحرقة.

***

بعد ثلاثة أيام من هذا اللقاء، اتصلت بى عمتى قائلة: تعالَ إلى محل فلان، الساعة كذا، فلى معك شأن. ذهبت ووجدتها ضاحكة مستبشرة، قالت: لقد أتيت لك بخبر طيب، بالأمس رأيت "ميشيل" ابن عمك، تحدثنا عنك وحكيت له حالك دون زيادة أو نقصان كما كنت رويتها لى بالتفصيل، وأضفت من عندى أنك تشعر بالحرج الشديد بسبب اختطاف "ليدا". لم أكذب بالطبع؛ ألم تكن تتمنى ألا تكون قد رأيت "ليدا"؟

قلت: لا قدر الله أن أتمنى مثل ذلك الأمل... قالت: يا له من وفاء وروح قوية، ليت الرجال كلهم كانوا مثلك... دعنى أتحدث أولاً! سمع "ميشيل" حكايتك، كان يضحك سعيدًا، كأنه لا قدر الله سعيد لمعاناتك، لكن عندما ذكرت له أنك ليست لديك نقود، فكر ثم

أخرج دفتر الشيكات من جيبه وكتب هذا الشيك بمبلغ كبير باسمك وأعطاه لي وقال: "أعطي هذا الشيك لـــ"ويليام"، وخذى منه إيصالاً وأبلغيه بأني لا أتعجل رد هذا القرض دون أرباح، وعندما يصير مهندسًا ولديه دخل، فليعده لي، والآن أكتب الإيصال بهذا الشيك وخذه.

أعطيتها الإيصال وأخذت الشيك، وأرسلت إلى "ميشيل" رسالة ود وحب دافئة. في الغد وضعت كل هذه الأموال بين يدى "ليدا" وقلت: "لقد أقرضني أحد زملاء الدراسة هذا المبلغ. لم تقل شيئًا ولم تضحك ضحكة تدل على رضاها أيضًا، وفهمت أنها تأثرت لأنها فقدت الحجة التي كانت ستتذرع بها للنزاع، وهي عدم وجود المال.

كنت أذهب وراء "ليدا" إلى أغلى المطاعم، لم أبد أى اعتراض على هذه النفقات حتى تكون سعيدة راضية، مع هذا فقد كنت حريصًا على ألا أنظر إلى وجه أى سيدة أكثر من نظرة واحدة، ورغم ذلك فقد كان لدينا كل ليلة ويوم نزاع ونقاش.

كان عزائي هو قراءة القصة التي كانت "هلن" قد نشرتها بالجريدة، كنت أقرأ وفي كل مرة كان يتضح لي أكثر أن موضوع القصة هو قصتي نفسها وقصة "هلن" و"فيليب". كانت النتيجة الأخلاقية لهذه القصة "هي أنه في ربيع الحياة، يكون تأثير العشق على وجدان الأولاد كالرياح التي تهب على البحر، ما تلبث أن تهدأ

وتنسى، لكن نار العشق في قلوب البنات، كالنيران التي تضطرم في روضة، لا تقبل النسيان، الأولاد يتخذون من العشق لعبة، و البنات يعشن على العشق...

***

بعد شهر وبضعة أيام، عندما أتممت القصة ذهبت إلى إدارة الجريدة وحصلت على عنوان الكاتبة، ومشيت قاصدًا رؤية "هلن" بحالة ممتزجة بالنشوة والخجل والتردد. كنت أنسى الزمان والمكان للحظة، وأرى أننا البنت والولد أنفسَهما، حين كنا نلعب ونرقص معًا في المدرسة.

كانت هذه الخواطر والمشاعر والأفكار تسرى بوجداني، وترد على لساني العبارات الطفولية نفسها فيقبض حلقى من السعادة. ثم أعود لحظة أخرى إلى الحقيقة، فكانت تخرج منى آهة. كنت أرى أن الزمان والأحداث لابد وأنها غيرت وجودنا وشكلنا وحياتنا وخيالنا، فلم أكن أنا كما كنت، ولا هي... لكنى كنت محتاجًا لوجود "هلن" واحدة، فلابد لي من أن ألجأ إلى أحد من ظلم "ليدا"، تلك الـ"هلن" مهما كانت و أيا ما كانت، فلا حيلة لدىّ...

كنت أسير حقا في طريق خيانة "ليدا"، وكان رأسي لأسفل خجلاً، لكى أطمئن نفسى، قضيت فترة طويلة، مددت الطريق حتى وصلت إلى باب المنزل في النهاية، دققت الجرس بيد وقلب

يرتجفان، وتوقعت ألا يفتح الباب، دققت الجرس مرة أخرى وانتظرت طويلاً، لم يأت أحد. فاطمأن قلبى وكنت على وشك العودة حين سمعت صوت الباب وهو يفتح وخرج رأس يطل منه. رغم أننى لم أعرف "هلن" وهى بتلك الهيئة كانت حزينة ذابلة، حتى احترق قلبى من أجلها.

ألقيت السلام، وقلت: لقد جئت لأسأل هل لى أن أعرف إذا كان أبطال قصتك هذه هم الذين كنت أعرفهم؟ أو لا؟ ودون أن تنظر لى قالت: من فضلك، أنا الآن مشغولة فلدىّ أمر مهم، لا أستطيع أن أقطعه.

كان صوت "هلن" ونظراتها، لكنى كنت قد تجمدت ولم أنطق بكلمة. أرادت أن تغلق الباب، فقلت: عزيزتى "هلن" ألا تعرفين "ويليام"؟ دققت للحظة، أمسكت الباب بإحدى يديها حتى لا تقع، ووضعت الأخرى على الجبهة، استمرت هذه الحالة للحظات ثم فتحت ناحية من الباب وقالت بصوت يرتجف: لماذا جئت متأخرًا هكذا! لماذا جئت وأفسدت علىّ هدوئى!؟ فقلت: لو تأذنى أذهب. لكنى لم أذهب ووقفت، فقالت بهدوء وتعقل: تعالَ، اصعد.

دخلت حجرة، والتى كانت جديرة بعالم كبير وليس بسيدة شابة، فكل مكان به كتب وأوراق، وقد تبعثرت على المنضدة والكرسى والأريكة والأرض، وقد علقت على الجدران تماثيل

لعظماء العلم والأدب، أشارت إلى مكان فجلست، لكنها لم تستطع الجلوس فقد كانت مضطربة قلقة حتى إنها لم تكن تنظر إلى وجهى، بل كانت تمسك بهذه المنضدة وذلك الكرسى حتى لا تقع. فقلت: لقد جئت ملتمسًا أن تسامحينى.

فنظرت إلىَّ وجلست بلا اختيار وسقط رأسها على الصدر. سمعت من تلك النظرة أنها قالت: أنت تستحق القتل على يد "ليدا" مائة مرة أكثر من هذا، انظر ماذا حدث لأوراق زهرة وجهى بسبب نيران ظلمك، الزهرة التى قطفتها من شجرتها كى تلهو ثم ألقيتها تحت قدم شخص آخر، انظر كم هى حزينة ذابلة... فقلت: والله لم أكن أعرف أننى ظلمتك.

رفعت الرأس وكالأم التى تغفر ذنوب ابنها ويشع نور المحبة من عينيها، كان يعلو وجهها الوقار والنبل، كالرجال حين يصادفهم الحظ السيئ والألم، وفى النهاية يتغلبون عليه. أو كشاعر كان قد نسى جسده دفعة واحدة، وكان يهتم بزينة روحه فقط، من أجل معشوق خياله، فلا يرى أثر الزينة عليه من رأسه إلى قدميه.

قالت بصوتها الناعم الباكى نفسه الذى يعلق بأذنى منذ أيام المدرسة، والنظرة نصف المغمضة نفسها وحالة الاستسلام التى كانت لديها: "ألا تعرف حقا أنك أشعلت النار بروحى وذهبت، ذهبت وتركتنى عمرًا فى حرقة وأسى؟... كم تألمت وتوسلت حتى أشفق

قلب إله العشق عليَّ، وراودتني فكرة تسمح لى بأن تخرج هذه النيران الداخلية على الورق من سن القلم، وأقول كل ما فى قلبى كى يسمعه الجميع، ويشاركونى حمل هذا الألم، أردت فى البداية أن أكتب قصة هذا العشق والحرقة على لسانى، لكن حين بدأت الكتابة رأيت أننى إذا قلت هذه هى أنا التى تعانى كل هذا الظلم والاضطراب، هذه هى أنا التى تبكى وتشكو وتئن كل هذا، وأطلب من يشاطرنى أحزانى، سيعتبروننى قد جننت، ولن ينصت أحد لما أقول، لأن الناس يهربون من الحقيقة العارية، انفصلت عن نفسى وعن تلك العاشقة الوالهة والفاسدة، مضطرة، وقررت أن أكتب القصة موضوع الكتابة عن نفسى تحت اسم مستعار، فكنت أكتب كل ما يقوله أو يئن به قلبى بلا خجل أو حياء، وكأن كل خط أخطه مشرط يصيب قلبى، يفك به عقدة. بعد كتابة هذه السيرة، كنت أستأنس وأنسجم مع حزن عشقك، حتى إننى لم أكن أتمنى إلا هذا العشق وهذا الألم، فلا رفيق ولا صديق... لماذا جئتَ وأفسدت عليَّ سعادتى وهدوئى...؟

وتدحرجت جوهرتان تحركان الخيال من على وجنيتها، كم تمنيت أن تتوسل هاتان الجوهرتان من أجلى وأشاهد ثورة وجدانها فيهما.

تأوهت وقالت: نعم كتبت ما حدث لقلبى، لكن كم من أفكار ومشاعر رقيقة وكم من أشعار لا يجد القلم ما يعينه على كتابتها،

وسرت من كيانى آهة فى الهواء وذهبت هباء! كتبت لكن ما أكثر ما يكون القارئ مشغولاً بنفسه، فلا يدرك حال قلوب الآخرين. يا له من فضل أن قرأت قصتى، فقد كتبت هذه القصة لك. كنت أتحدث معك وأكتب، ولو لم أستطع أن أعلن بعضًا من شرح أحوالى، فإننى كنت أعرف أنك ستقرأ ما لم يكتب أيضًا. ولو أن القصة لم تقع بيدك بالصدفة ولم تقرأها، كنت متأكدة أن روحك قد قرأتها، لأنها كانت دائمًا معى. كانت روحك تقرأ كل ما أكتب، وما يخطر على قلبى ولم أستطع كتابته وتشاركنى الآلام. كم كنت أستعذب الحزن وحال السعادة، لكن لماذا جئت مرة أخرى.

قلت: إذن فاسألى عن حالى كى تعلمى أى بلاء وعقاب حل بذلك القلب الحجرى، الذى حطم قلبك ورحل.

كانت السحب السوداء تتراكم بوجدانى وتتحين الفرصة كى تسيل وتنزل بثوب "هلن"... نقلت شرح حالى بكل وضوح، وكل ما حدث مع "مادلن"، وعن واقعة وفاة أمى، وعن النار التى تأججت بقلبى بسبب غيرة "ليدا" وسوء ظنها. فهمت أن قصتى مخيفة ومحزنة أكثر مما كنت أتصور من الحزن والغضب الذى كنت أراه فى وجه "هلن".

كانت "هلن" تضع المنديل على عينيها بين الحين والآخر، كى تلتقط به حبات الدموع.

رأيت صورة "مادلن" فى وجهها عندما كانت تذرف الدمع لحالى. رأيت أمى عندما كانت تئن لحالى... قلت: هل هذا صحيح؟ هل ما زلت تحبيننى رغم كل هذا الظلم ويحترق قلبك لحالى؟

لم تقل شيئًا لكن رأسها كان لأسفل، ودموعها تسيل على ثوبها.

كانت كالطفل الذى وجد أمه بعد أن فقدها، ركعتُ على ركبتيها وكنت أبكي وأنوح، فتدلت جدائلها الطويلة لأسفل، وكانت تلاطف وجنتىَّ، بينما تتساقط حبات دموع المحبة على رأسى ووجهى فترطب روحى الملتهبة.

قالت بصوت منخفض ومتعب، وكما يفعل المساكين: لماذا جئت؟ لماذا أخرجتنى من هذا الخطأ الجميل!؟ كنت أعتقد أن الكتابة ونشر آلامى حول العالم هى البديل عن المعشوق! فجئت أنتَ وعرفتُ أننى لن يكون دواء لآلامى إلا أنت، فهمت أن حرقة الجراح لن تهدأ بالبكاء والصراخ. رأيتك ثانية وتأكدت أنه لن يحل محلك أىُّ وجه جميل، وأىُّ فكر وشعر وفلسفة. لكن ماذا سأفعل بعد ذلك مع أحزانك، فأنا أعانى الألم، ونفدت طاقتى تمامًا. ليتنى كنت أستطيع الموت حزنًا، بشرط أن تستريح وتتخلص أنتَ من هذا الحمل.

كم كان بتلك الكلمات من سحر، حتى تبخر كل ما لدىَّ من آلام وقلق وحزن، وذهب عنى... يا له من إعجاز حينما ظهر وجه

"هلن" بلا زينة، فكان بعينى أكثر إشراقًا من القمر؛ رأيت أن حكماء العالم قد وقفوا فى تلك المكتبة لمـــناصرتى ومســـاندتى. قلـــت: أنا لا أعانى ما دمتِ أنت معى، وكأن تلك الآلام التى حلت بى، إنما لأعرف قدر هذه السعادة.

كنت قد وضعت الرأس على صدرها، وأخذت أبكى وأنوح من الشوق، بينما كانت أصابعها تبحث عن العشق الضائع بين خصلات شعرى وطُرّتى. كنا نبكى ونشكو معًا، تكلمنا بحديث لا يعطى معناه الخاص إلا فى مثل هذه الحالة. فجأة تملكنى الخوف من أن أُطرد من تلك الحالة وذلك المنزل! قلت: ليتنى أنا أيضًا أجد المأوى فى هذا المنزل كأحد هذه الكتب، بالله عليكِ لا تطردينى من هنا، ولا تدعينى وحدى.

بكت وقالت: "أنت قنديل حياتى، ودونك كان قلبى مظلمًا مفزعًا، جئت وخلصتنى من حزن الوحدة والخوف، لكن إذا ضاع قنديلى هذه المرة فسوف يذهب النور من عينى والروح من جسدى..."

انتعشت روحى المتعبة اليائسة لسماع هذه البشرى، بعد أن كانت تتلقى كل يوم لطمة جديدة وتتألم أكثر على يد "ليدا". بدأت ذرات وجودى فى الرقص شوقًا، إن "هلن" تعتبر أننى مصباح منزلها. أنا الذى لم أكن أسمع من فم "ليدا" إلا الظلم والتوبيخ، فكانت

تضيف كل يوم ذنبًا آخر لذنوبى. فجأة سمعت "هلن" تقول "أنت كالمصباح المضىء، لا ذنب لديك".

عرضت الروح المحترقة لهبوب نسيم المحبة، وصرت كلى آذانًا حتى أسمع. لكن "هلن" نسيتنى وكأنها كانت تتحدث إلى معشوق خيالها الذى فقدته منذ سنوات. نظرت إلى نقطة مجهولة وقالت: تلك الأيام حينما كنا معًا بالمدرسة، كنت أرى أنك تحب شعرى المجعد جدًا، فكنت أنا أيضًا أمشطه كل يوم، وأتمنى أن أصنع به تموجات جديدة من أجلك. كنت أعرف أنك تحب بشرة يدى البيضاء الناعمة وزينة أصابعى، فلم أفعل ما يجعل يدى قذرة أو خشنة.

كنت أرى أننى عندما أرتدى الفستان الوردى كانت عيناك تتجول على الفستان وكأنك بروضة، فكنت أنا أيضًا أطلب من أمى دائمًا أن تشترى لى قماشًا ورديًا، كان يبدو من حقيبتك المرتبة وكتبك وكراساتك النظيفة ومن ملابسك المزينة، كم تحب النظام والنظافة، فشيدت لك أنا أيضًا منزلاً وحياة وعشًا للعشق بطهارة السماء، جمال عينيك وحاجبيك وترتيبهما. كان يبدو من صوتك العذب وحركاتك الناعمة ونظراتك الودودة، أنك تتمنى أن تكون زوجتك ومعشوقتك جميلة وطيبة القلب والطبع، فكنت أقول أنا أيضًا لك بالعين إننى سأكون زوجة وصديقة وخادمة مخلصة لك طوال العمر، ولن يصيب قلبك الرقيق أىُّ أذى مطلقًا بسبب وجودى.

لكنك لم تفهم ماذا أقول لك بالعين، وبم أعدك وماذا أتمنى لك...

خسارة أنك لم تفهم ومنحتنى لآخر، تخيلت أنك تستطيع أن تلقى بقلبى بعيدًا عنك... رحلت وأخذت منى كل هذه الآمال والأمنيات وتركتها للريح، لم تكن تعرف كم تفقد من جواهر!...

رحلت أنت، لكنى احتفظت بخيالك الجميل كالروح الجميلة، وعشقته وعشت معه بين السعادة والحزن. للأسف لم يطلب منى خيالك اليد الناعمة والجدائل المتموجة والمنزل المزين، أنا أيضًا لم أطلب لنفسى شيئًا، وبالتدريج وقع الفتل والتموج من شعرى إلى وجدانى، وحلت النعومة من يدى إلى قلبى، لكن إذا كان منزلى ومسكنى بهذا الخراب الذى تراه، فلأننى شيدت قصر العشق بقلبى جميلاً ومزينًا.

لكن الآن وقد رجعتَ وأعدت إلىّ الروح، فإن جدائلى ستتموج وتمتلئ بالتجاعيد مرة أخرى، وسيمتلئ فستانى بالورود والأوراق، سيكون وجهى ألطف ويدى أرق.

صرخت قائلاً: ماذا تقولين! هل هذا صحيح؟ هل تغفرين لى كل هذه الذنوب، وتقبلينني بقلبك ومنزلك، أنا الذى لا مال له؟

قالت: لقد ورثت عن أمى المال الوفير، وربحت الكثير من المال من وراء هذه القصة التى بين يديك، ولدى أيضًا ما يكفينا حتى آخر العمر أنا وأنت.

كأننى صرت فاتحًا فى الهزيمة واليأس، فنهضت من المكان، وبينما كنت أمشى أحيانًا وأقف أخرى قلت: هذا الكلام مطرقة تدق تابوتى فأيقظنى. كنت بين الموت والحياة، مشاعرى وأفكارى كلها ملوثة يلفها الظلام، حتى السمع والبصر توقف عن العمل، فما أكثر ما كنت أنصت إلى اللحن والغناء ولا أسمع فى الروض ولا أرى الزهور، كنت أقرأ الكتاب ولا أفهم، وأفكر فلا أجد حبل أفكارى بين يدىَّ.

كانت الدنيا تبدو بعينى من وراء سحب الغمام حلمًا مضطربًا ووهمًا مخيفًا، فالناس فى هذا الحلم بلا شعور وصمٌّ وعمىٌ، لا يشارك بعضهم بعضًا فى الأفكار، وقد ضاق كل منهم ذرعًا بالآخر! كنت أشعر بالمشيب قبل الشباب، وبالألم والتعب قبل الحياة. لم يكن لدىَّ ملجأ إلا قلبى الخرب، ولا مؤنسًا إلا الحزن. ابتعد عنى الأمل والرجاء كثيرًا، خارت قواى وضعفت.

كنت أموت يومًا بعد يوم، ليتنى قد مِتُّ ولا أرى زمانى الأسود، لكن كأننى فى حلم، عاجز مسكين، أرى عذابى وألمى ولا أفعل شيئًا، أتمنى أن أفعل شيئًا ولا أستطيع، الطريق أمامى لكن

قدم فرارى مقيدة، وقد وقعت أسير شرك قلب "ليدا" الحديدى، ولم يكن يعرف سبب عذابى وألمى، فلا تسمع بكائى وعويلى، ولا أمل للنجاة من يدها.

أنتِ كإسرافيل، فقد نفخت نفخة الصور والمحبة بى فأحيتنى، أعادت الرؤية إلى عينى، والسمع إلى أذنى. كنت أرى فى وجهك مرة أخرى ذلك الشعاع الأول للعشق الذى أضاء قلبى، وأسمع من فمك البشرى التى تهب الحياة والحب. آه، كم أحسنت صنعًا عندما حطمت قيد الاحتياج الحديدى لوجود "ليدا" عن روحى. كان غصن شبابى قد بدأ يجف، والساق والأوراق لغصن سعادتى كانت تتساقط كدموع حزنى الواحدة بعد الأخرى، وزهور عشقى وأملى كانت فى برعم ذابل.

كنت قد فقدت شخصيتى ورجولتى بسبب ظلم "ليدا" واعتدائها، وأرى نفسى مذنبًا متهمًا ولا أعرف ماذا جنيت.

كنت أرتجف بداخلى عندما أرى فتاة أو سيدة عجوزًا، كنت على يقين من أنه يخفى علىّ أنه إذا مر بخاطرى خيال يتعلق بتلك السيدة أو تلك البنت! أتصور أن الجميع سيعتبروننى مذنبًا، وليست "ليدا" فقط، ولن تدرك الحقيقة رأس أو عين أو أذن، ولن أجد قلبًا عطوفًا! كانت الدنيا كلها تبدو أمامى باردة وصعبة وبلا شعور. أبكى وأهرب من كل شىء وكل شخص، أتحدث وأسمع وأذهب وآتى

وأقرأ وآكل، لكن لم أكن أنا الذى يعيش، أعانى عذاب الحزن والحيرة فى سجن الخيال، آلية وجودى تلك هى التى تنجز هذه الأمور بحكم الغريزة، العادة الحيوانية.

لو أستطيع أن أحكى عن ذلك السجن والعذاب، وأدوّن تلك المشاعر والأفكار والحرقة والألم الذى أصابنى بذلك السجن، لسجلت قصة يسيل لها الدمع من العيون، وتكون القصة التى نسجتها مثيرة للعـبرة والخوف، وتمحو الغيرة وسوء الظن من الدنيا، خسارة أننى لا أستطيع...

واحسرتاه، لا توجد وحدة أصعب من وحدة القلب، لكن الحياة بالقرب من المحبوب، هنا تكون وحدة القلب أمرًا قاتلاً. العجيب أننى كنت أحترق بهذه النار، ولا أتمنى أن يبتعد عنى المعشوق.

كم من ليالٍ وأيام عانيت من اليأس، بعد المنطق والاستدلال والعجز والتضرع، فأصرخ من أعماق قلبى قائلاً: "ليدا" أيتها الروح العزيزة، يا من تكون الحياة دونك أصعب من الموت. افعلى كل ما تستطيعين بى من ظلم، انزعى عنى الحياة، والأمل من كيانى، اقتلى هذا القلب المحترق وألقى به بعيدًا، عاقبينى وعذبينى بكل ما تعرفين أننى أستـحقه، لكن لا تتركـينى، أو خذى روحى قبل الرحيل، فأنا لا أستطيع أن أحيا دونك...

تنبهت إلى "هلن" من صوت بكائها، رأيت أنها قد وضعت يديها على العين والوجه وأخذت تبكى، قلت: عزيزتى "هلن" ألم نتخلص أنا وأنت من الألم والعذاب وتزوجنا؟ فلماذا البكاء إذن؟

تأوهت ومسحت العينين بمنديل، وقالت بصوت باك: كم أحسنت أن قلت كل ما بقلبك، وأرى أنك عاشق وأسير، وقد تعودت على سجن "ليدا" وألم عشقها، حتى إن تصور النجاة منه بالنسبة لك ولها أصعب من كل ألم وتعب... أنسيت ما ذكرته لى منذ دقيقة واحدة... نسيت وناديتنى بـــ "ليدا"، وقلت "لا أستطيع أن أعيش دونك... اقــتلى هذا القــلب المــحترق وألقى به على الأرض. لكن لا تتركينى أو خذى روحى قبل الرحيل..." نصيبى من السعادة فى هذه الدنيا هو النواح، ففى اللحظة التى تخيلت أنك ملكى، خدعت وتصورت أن أيام فراقى وعذابى قد انتهت... أى قسوة كانت هذه التى فعلتها بى، لماذا حملتنى إلى الجنة ولم تعطنى الأمان أكثر من لحظة! أنا عمياء لأن عينى فتحت على جمال الدنيا لحظة وأغمضت، وسوف تصبح حياتى أكثر ظلمة وخوفاً بعد ذلك... أنت يا من أسرك عشق "ليدا" بجنزير، لماذا جئت إلىَّ فى هذا الوقت... فهمت، جئت تشعل نارى أكثر وتستمتع بمشاهدة احتراقى...

لم يسمح لها البكاء بالكلام. أخذت يدها وبكيت قائلاً: سـامحينى، لم أعــرف أنى أضررتك... لكن معك حقا، أرى أننى لا زلت أسير قيد "ليدا"، أنتِ ينبغى أن تتعاونى معى وترفعى هذا

القيد عن عاتقى... "هلن" عزيزتى، أقسم بالله أننى مصمم على الهرب من سجن "ليدا"... أعطينى أنت القلب والشجاعة، أخفينى فى ملجئك..."

فجأة توقف بكاؤها وفكرت وقالت: رغم أنه أمر صعب لكن لن يمنعنى أحد عن التضحية من أجلك، صحيح فأنا مستعدة أن أقبلك فى منزلى وقلبى، رغم عشقك لـــ "ليدا"، وأخلصك من عذاب غيرتها وألمها وسوء ظنها، لكن أنت لا تعرف كم يكون وجود العاشق صعبًا على عاشق آخر..."

أمسكت بيديها، وحتى تبللت بالدموع والقبلات ثملتُ من العشق، وكنت كطفل ضال وجد أمه، وعدتها بأن أوفق أمورى مع "ليدا" خلال يومين أو ثلاثة أخرى، ثم ألقى بنفسى تحت قدميها...

***

مشيت فى شوارع المحلة مضطربًا وثملاً ومجنونًا، لا أتذكر أين كنت، وماذا قلت، لم أكن أعرف إلى أين أذهب وماذا سأقول. كنت أهرب من منزل "هلن" وأفر من منزلى. كنت أبحث عن ملاذ آخر ويد المحبة، حتى تحفظ عجلة تفكيرى عن الاختلال. أخذتْ السعادة والخجل والحزن واللطف والحرقة والحسرة، وآلاف التأثيرات الأخرى، التى تتكون منها جميعًا، فى الثورة بقلبى. كنت كقطعة خشبية تمزقت بين الأمواج، لم يكن لدىَّ اختيار، أتوقع حادثة

تقرير مصيرى. كنت أخشى أن تكون "ليدا" قد أعدت أحد المآتم الليلة أيضًا، وتلقى بى دفعة واحدة ناحية "هلن"، كما كنت أخشى أن تكون عطوفة فتحتفظ بى بين أحضانها!

لاح فى الأفق فجأة طريق للهرب أمام عينى، طريق مفتوح ومن السهل أن يوصل بسرعة إلى ملاذ، ويخلصنى من كل معاناة. تنفست نفسًا عميقًا، استرحت من كل ندم وحزن، قلت: إذا لم يحل الزمان عقدة أمرى حتى ثلاثة أيام أخرى، فسوف أفعل هذا الأمر بنفسى، أى سوف أموت.

رجعت إلى المنزل برجولة، كنت قد هيأت نفسى لتحمل أى شيء. الشخص الذى يستطيع أن يواجه الموت مم يخاف؟! فتحت الباب، ولأننى كنت أعرف أن "ليدا" عندما تكون وحدها، تستلقى فى الفراش، وتقرأ أحد الكتب، فذهبت إلى حجرة النوم، رأيتُ منظرًا حيرنى. كأنها المرة الأولى التى أرى فيها "ليدا"، لم أكن قد رأيتها مطلقًا بروعة الجمال هذه والعظمة، كانت تمثال فينوس إله الجمال لكنها تتنفس.

١٠. كانت مستلقية على الظهر وقد وقع الكتاب من يدها على الصدر. لو صنعوا تمثالاً بذلك الجمال فلن يكون هناك أى اعتراض على عبادة الأصنام .

مدت قامتها الطويلة، كانت قدماها قد تدلتا لأسفل السرير. خفق قلبي كي أقبل تلك القدمين، لكني تجمدت في مكاني، وكنت أتنفس بحذر، خوفًا من أن تستيقظ "ليدا"، وتفسد تلك الحالة.

كانت تموجات جدائلها الذهبية تلمع تحت نور المصباح، كأمواج الشمس، فكانت تضيء عين قلبي. جبينها قطعة من القمر، شفتاها كورقة الورد الأحمر التي التفت للخارج كأنها أسطوانة، كانت تهتز أحيانًا فتبدو كأنها تحصي ذنوبي وتتنازع معي، فصرخت في نفسي قائلاً: والله وبكل ما تملكين من جمال وبهاء، كل ما تأمرين مطاع، أنا مذنب. أنتِ تعرفينني أفضل مني، كل عقاب وزجر وعذاب ترتضينه لي مستساغ، إلا أن تكفي عن تعذيبي أو تبتعدي عني...

لا أستطيع أن أتخيل أن أعيش ولا أراك ليلاً ونهارًا، لا أخاف من سُحب الغضب والسأم التي تظهر فجأة في جبينك وعينيك، لا أخاف من هذه السحب الداكنة التي سوف تمطر على رأسي بوابل من التهم والكذب وما لا يليق، لا يغوص قلبي!

لا أستطيع أن أدع هذا الخيال القاتل، بألا تكوني يومًا ما في هذا المنزل، وألا تتحركي من هذه الحجرة إلى تلك، ولا أسمع وقع قدميك، وألا تقفي أمام المرآة وتتزيني، ولا أثمل من شذى عطرك وأفقد الوعي لرؤية جمالك وقوامك!

كيف لى أن أذهب للتنزه دونك، أو أن أنام أو أستيقظ أو أحيا! فعذبينى كيفما شئت! اقتلينى، والله كلُ ألم وتعب هو أسهل من أن تتركينى وتذهبى مع آخر، أو يجذبك رجل آخر طويل القامة بين أحضانه، أو أن يفنى آخر نفسه فى عينيك، ذلك البحر الأزرق...

لا أريد أن يسمع أحد غيرى منك ما لا يليق ويرى العذاب، ينبغى أن أتحمل أنا وحدى عبء آلامك...

ماذا أفعل فأنا عابد الصنم، أنت الصنم الذى أعبده، لا أستطيع أن أرى ولو فى الخيال، من هى أجمل منك، فلم يخلق الله من هى أجمل منك...

تحررت من ضيق الشك والتردد، قلبى يصيح سعادة من الرضا والتسليم، لكنى ذهبت إلى الفراش فى هدوء، حتى لا تستيقظ "ليدا" وتتشاجر ونمت.

رأيت حلمًا بأننى قد ذهبت إلى منزل "هلن"، جلست بجوارها وأمسكت يدها، أردت أن أقول، أعترف... لكنى لا أعرف ماذا أقول، كنت أرتجف، ودار رأسى وجف لسانى فى فمى...

فبكت "هلن" وقالت: آه، إننى أرى أنك لن تتخلص من قيد عشق "ليدا"، كنت أقرأ كل ما يجول بفكرك.

أنت يا من لا تملك إرادتك وحريتك، لماذا جئت وأيقظت عشقي النائم وألقيته بروحي! يا له من ظلم واعتداء. هل يقلل عذابي من آلامك؟

كانت تقول وتبكي. فجأة وصل صوت "مادلن" الرقيق من السماء قائلاً: يا "هلن" إن الشكوى والملامة ليست من عادات العاشق، قلبك يحترق من أجل "ويليام"، هو مسكين أكثر منا لأنه يعبد صنمًا بلا روح، ويطلب المحبة من قلب حجري.

نحن عشاق روح معشوقنا. هو أسير جسد معشوق بلا شعور، عشقنا كله توفيق، لأن الروح لا تحيا بلا حب أو وفاء. العشق كله إخفاق وظلمة نهار فجسد بلا روح ليس به إلا البرودة وعدم المحبة. وقلبنا يحترق لحال "ويليام"...

فصرخت قائلاً: بالله عليكم خلصوني من عبادة الأصنام...

استيقظت على صوتي، اشتبكت مع "هلن" و"مادلن" للدفاع عن "ليدا"، كنت أقول: أنتم تخطئون. ذرات كيان "ليدا" من العشق والحب والوفاء، لأنها تحبني فإنها تعاني من الحرقة والذوبان، إذا كنت أنا أحترق بنيران عشقها، هذه النيران لا قدر الله إن خمدت، تجعلني رمادًا...

صباح اليوم التالى عندما استيقظت "ليدا" من النوم، كنت لا أزال فى حديثى مع "مادلن"، "هلن"، كنت أقول: انظرا فى عينيها، إننى لم أخطئ، انظرا كم هى سعيدة ضاحكة، ذات نظرة عاشقة...

بينما أنا على هذا الحال، فإذا بـ"ليدا" تضحك ضحكة طويلة وقالت: يا لك من ساذج أبله، تتصور أنى لا أعرف أين كنت تهرب من المنزل هذه الأيام، وإلى أين كنت تذهب!

فهمت أنها تعرف أننى كنت لدى "هلن" بالأمس، فخفق قلبى. فتحت الفم كى أحكى لها ما حدث دون زيادة أو نقصان، وأتوسل إليها وأعتذر ألف مرة قائلاً: إنها المرة الأخيرة.

لكنها لم تمنحنى فرصة وقالت: واضح من لونك الشاحب أن جواسيسى لم يكونوا يكذبون، فأنت تشترى الجريدة كل يوم من تلك السيدة العجوز، وتشترى السيجار من تلك البنت، ومن تلك العجوز الأخرى...

انتظرت فى صمت حتى تتحدث وتصل إلى "هلن"، لكنها أشارت إلى جميع معشوقاتى لكنها لم تقل عنها شيئًا.

انتهزت الفرصة وقلت: ما قصدك من تكرار هذا الهراء القديم اليوم؟

فقالت: قصدى هو أنه إذا كنت أنت رجلاً شريفًا نبيلاً، فلا تدر شئوننا بالتسول.

تعجبت وقلت: أتعتبرين حياتنا تسولاً، رغم كل ما وضعت بين يديك من أموال؟

فضحكت بسخرية وقالت: أى نقود، لم يبق منها مليم واحد، فكل ما أخذته منك بهذه اليد أعطيته بالأخرى إلى المخبر الخاص الذى كان يراقب خيانتك وقلة أصلك.

لم يكن قد مضى على زواجنا ثلاثة أيام حينما رأيت أن عينيك وراء هذه وتلك، لا تدع عجوزًا أو شابة، فاتفقت أنا أيضًا وبسرعة مع مركزين للشرطة، كى نراقبك ليلاً ونهارًا، ويخبروننى أين تذهب، وأى السيدات رأيت، وماذا قلت وفعلت... تعرف بالطبع أن البوليس الخاص باهظ التكاليف، لكنى كنت مضطرة كى أعرف تعاملاتك... أتريد أن أخبرك أين كنت بالأمس؟

تجمدت وكأننى قطعة من خشب، صمتت وبقيت بلا حركة، توقعت أن تحل بى مصيبة، لكنها لم تأت، نظرت "ليدا" فى الساعة التى بمعصمها وقالت بعد ربع ساعة من الآن سيكون تقرير المخبر السرى فى صندوق الرسائل، وسأقول لك أين كنت بالأمس.

أردت أن أقول الحقيقة، لكننى رأيت أن "ليدا" فى حالة لا تسمح، فإذا خرج صوتى فسوف تشتعل النيران، كأنها اصطدمت بمخزن للبارود. نهضت، هيأت نفسى بسرعة، ارتديت ملابسى حتى أهرب من المنزل قبل ربع الساعة. بينما كنت أستعد للخروج، دق

جرس الباب، فهمت أن رسالة قد ألقيت فى الصندوق، فتوقف الدم فى عروقى، خرجنا من الحجرة، "ليدا" فى الأمام وأنا فى الخلف، وصلنا إلى باب المحلة، أردت أن أفتح الباب، فلم تدعنى وقالت: اصبر حتى أخبرك أين كنت بالأمس.

أخرجَت الرسالة من الصندوق وقرأت وصرخت قائلة: ماذا كنت تفعل بالأمس فى منزل "هلن"! متى وجدت هذه الفاحشة!

ثم شغلت مرة أخرى بقراءة بقية التقرير، ففتحت الباب بسرعة وألقيت بنفسى إلى المحلة وفررت. كان قصدى هو أن ألجأ إلى منزل "هلن" من هذا البلاء، ولا أخرج منه بعد ذلك، لكن قدمى لا تسير، فكنت أبحث كالمجنون عن حل آخر، كنت أدور فى المحلة والشارع.

كنت بين أحد اختيارين: الأول هو أن أقتل نفسى، الثانى هو أن أنسى "ليدا" تمامًا، وأرتمى بين أحضان "هلن". لم تكن "ليدا" محبوبة ولا مرغوبة بعينى إلى هذه الدرجة يومًا ما، كنت أتعجب لأننى ((لماذا أعيش ولا أموت من فكرة أن أتركها فى الحالتين!؟)) كنت أتصور أن وجود "ليدا" يحفظنى من الموت، وإلا فكان ينبغى أن أموت، بسبب هذا الحزن والألم الذى أعانيه الآن.

لا أعرف لماذا ذهبت إلى ذلك الشارع الذى به منزل عمتى، وصلت إلى باب منزلها. مررت مرتين ثلاثًا على ذلك الباب، حتى وقفت فى النهاية وطرقت الباب. خرجت عمتى واستقبلتنى، وبعد

عبارات الترحيب والسؤال عن الأحوال، ذهبت وأحضرت لى كوبًا من الشراب وقالت: اشرب فلونك شاحب مضطرب جدا.

كأنها فتحت سدا مائيا، فتدفق من وجدانى سيل من الآهات والأنين، وشرحت ما جرى لى، قلت وقلت حتى ضعفت وبكيت بعجز. فجاءت عمتى بهدوء وقالت: مهما قلت أنا فلن تصدق، فانهض نذهب أحملك إلى رجل عاقل، هو الذى سيحل لك مشكلتك كعقدة المنديل.

ذهبت وراء عمتى إلى عيادة الطبيب كالخروف، فأدركت أنها عيادة نفسية.

قصصت عليه أحوال "ليدا" النفسية كطفل يسترجع درسًا سهلاً، أجبت عن كل الأسئلة، بعد أن انتهت هذه الأسئلة. نظر إلى عمتى واستأذنها للكلام بإشارة من العين، ثم قال لى: زوجتك مريضة نفسية، من الممكن أن تصل هذه الحالة إلى جنون شديد، أى تتجاوز الغيرة وسوء الظن، وتنفذ من أفكارها ما هو أكبر من ذلك. علاج هذا المرض عن طريق التحليل النفسى أمر صعب، فى الغالب يكون أمرًا مستحيلاً، لأننى على يقين من أنها لا تعتبر نفسها مريضة، وهى ليست مستعدة للتعاون مع الطبيب فتجيب عن أسئلته. وفى النهاية فإن الدكتور "فريمن" المعروف يتسلل إلى عقل المريض من نظرة عين، لعل ستين بالمائة من مرضاه يشفون بهذه الطريقة، لكن

هذا يتعلق بأن يسمح مريضك بذلك، ولأنها لن تسمح، فأنا أعتقد أن الوسيلة الوحيدة حاليًا، هى أن تنفصلا بعضكما عن بعض مؤقتًا، فربما تنسى هذا الفكر وهذا المرض لعدم رؤيتها لك.

قلت: وكم سيطول هذا الانفصال، كى تشفى؟

قال: على أية حال، فلن يكون أقل من عامين أو ثلاثة، بالإضافة إلى أنه ليس معروفًا أنها وبعد هذه الفترة، لو أرادت أن تعيش معك مرة أخرى، فلن يعود المرض، ولكن لأنك تحب هذه السيدة هكذا، عليك أن تضحى وتنساها تمامًا وتدعها تتزوج من آخر. فقد أدركت من شرح قصة حياتكما، ومن الأحوال النفسية لـــ "ليدا"، أنك إذا تركتها أنا متأكد أنها ستتزوج من ميشيل، لأنها كانت تذكر اسمه فى أثناء ثورتها، ويبدو أنها كانت تندم على فراقه.

فنظرت إلىّ عمتى بشفقة وتأوهت وقالت: "أنا أيضًا لا بد وأن أتفق معه فى هذا الرأى، ماذا علينا أن نفعل، إذ لا يمكن للعشق أن يكون بلا حرقة أو تضحية، أو لا يكون عبثًا، حتى لا أتعرض لمثل هذا الموقف طوال عمرى أعيش مطمئنًا. فضلاً عن أنك أنت و"ميشيل" أبنائى ولا فرق بينكما...

فنهضت وخرجت من عند ذلك الطبيب القاتل للعشق كالمجنون إلى الشارع. كان رأسى ثقيلاً كالحجر، وركبتى تلتوى من الضعف، وقلبى يضغط على صدرى، فكنت أتنفس بصعوبة، قد قبض حلقى

من الحزن، والدمع يسيل بقلبى. كنت أتعجب "لماذا يمر الناس من حولى ولا يدركون ما بى من ألم! أليس هناك شخص لا عمل له، ينتبه لمريض! ألم يروا من عينى المظلمة وأعضائى المرتجفة كم أعانى! وأتعجب أنه لماذا لا أفكر، لماذا لا أستطيع أن أربط بين هذين التصورين بوجدانى!

"ليدا" وتلك الليالى المضيئة أكثر من ضوء النهار، تلك الأيام المظلمة أكثر من الليل، "ميشيل" والمرض النفسى والانفصال، و"مادلن" و"هلن" و"أمى" وآلاف الأوهام الأخرى كلها كانت يد خفية تدق فى رأسى كالمسامير الصغيرة والكبيرة، لكن لا تتصل بعضها ببعض أو تتعلق بعضها ببعض أصلاً.

كنت قد سرقت هذه الأجزاء من الأوهام وذلك الجسد نصف الميت من عيون الناس، وأدور من شارع إلى شارع حتى أصل إلى مأمن خال، أتحدث مع نفسى بكل ما بقلبى، وأسمع وأبكى دون خجل. وصلت إلى غابة... ووقعت على كرسى بجوار بحيرة، أفقت حين كان الماء يتصبب من رأسى ووجهى، والأمطار تهطل و أنا أبكى.

كان نهر صغير يجرى تحت قدمى، ويجرف كمية من النمل والصراصير بقوة، ومهما حاول هؤلاء المساكين واستغاثوا وصاحوا فلا مجيب.

رأيت أن الطبيعة تتعامل معى أيضًا بالطريقة نفسها، فـ"ليدا" المجنونة عديمة المشاعر، هى يد الطبيعة التى تحملنى إلى الفناء، مهما صرخت وتوسلت فلا مجيب. مهما أصبر وأضحى لا تفهم! فمر ببالى أنه لو كان هذا النمل أيضًا بلا روح كالحصى ولا يتألم، كل هذا من ظلم الطبيعة، لتمنيت أن أكون بلا روح...

وسقط بين يدى مرة أخرى مفتاح حل جميع المشكلات، تذكرت أننى كنت قد قلت لنفسى، لو لم أجد حلا لمشكلتى هذه، فسوف أقتل نفسى. وكانت مشكلة أخرى قد أضيفت إلى مشكلاتى فى ذلك اليوم، فقلت لنفسى لا داعى للقلق، فإن ألف عقدة يحلها الموت بظافر واحد.

استراح ضميرى بعد ذلك الاطمئنان، واستطعت أن أفكر. فكرت فى أن أهرب من سجن "ليدا" وألجأ إلى "هلن"؛ رأيت أن ذلك الملجأ أكثر خوفًا من ذلك السجن، وكان هذا كأننى أتمنى أن أترك القلب والروح، وأوصل ذلك الجسد الميت إلى ملجأ!... فكرت فى أن أدور حول العالم، أجد "مادلن" وأركع تحت قدميها، تحسرت لأننى أتألم من أجلها، بينما قلبها مع شخص آخر.

صرخت قائلاً: أبدًا، أبدًا... إن ملاذى الوحيد هو سجن وجود "ليدا"، ولن أبيع ألمها بأى راحة مطلقًا، لا أستطيع أن أتصور أن أكون وحيدًا وأبتعد عن "ليدا"، وجنة الأخريات هى سجنى، وسجنها

هو جنتى! مجنونة كانت أم عاقلة، هذا يستوى عندى بذاك، فأنا أعبد ذلك الشكل الجميل والقد الموزون، هل يطلب عبّاد الأصنام أن تتمتع أصنامهم بالعقل والإحساس!

كنت طوال اليوم فى بحر الحيرة، مع أوهام الموت والجنون والفشل واليأس والشك والخوف والاضطراب والحيرة المفزعة، لا أشعر مطلقًا بالمطر والتعب والجوع، حتى فقدت الإحساس بجسدى وتوقف عقلى عن التفكير. ذهبت إلى المنزل كالحيوان الذى يهجع إلى عرشه، لم أفكر مطلقًا فى ذلك الأسد الضارى الذى يجلس بانتظارى هناك.

استقبلتنى "ليدا" بوجه طلق ودون أن تسألنى عن غيابى، أخذتنى بدفء ومحبة إلى مائدة العشاء. جلسنا وتحدثنا وسمعنا وتغازلنا، لكنى لم أكن أصدق أننى مستيقظ. كنت أعتقد أننى أرى حلمًا، بأن الطبيعة فجأة احترق قلبها لحالى، فرفعت يد إيذائها عنى، وأعادت عقل "ليدا" الذى كانت قد اختطفته منها فجأة.

احتضنتها ثملاً مغرورًا بالأمل وقلت: أصحيح هذا؟ أنسيت سوء الظن المحرق هذا، وتلك الأوهام الواهية، وعرفتِ أخيرًا أننى أعبدك؟ هل أدركت أخيرًا أن عينى لا ترى من هى أجمل منك ولن ترى؟ هل...

فضحكت ضحكة طويلة متعصبة وقالت: أدركت كل شيء وفهمته وقررت... لكنك لن تعرف ماذا قررت... ستعرف قريبًا جدا. حقا دعني أقول لك ماذا فعلت اليوم. ذهبت إلى منزل "هلن"، كم هي بنت طيبة وبريئة، أخرجت المسكينة من الخطأ، بمعنى أنني عرفتها عليك كما هي حالتك، قرأت عليها أسماء الإحدى عشرة معشوقة التي لديك، من أول عشقك لتلك البنت بائعة السيجار، إلى تلك السيدة العجوز بائعة الخبز، قرأت عليها كل ذلك من أوراق المخبر السرى، وكان الاسم الثانى عشر هو اسم "هلن" نفسها. وقلت لها: أيتها الأخت المسكينة لا يخدعك مريض الشهوة هذا، السفيه الكاذب، لا يخدعك بفقره، لقد أشقى هذا الحيوان المفترس الكثيرات، ولا تكونى من بين مَن خدعهن، أسرعى بالفرار من قبضته.

كنت أنا أقول بينما "هلن" تبكى. احترق قلبى من أجلها، رأيت أنها هى أيضًا عاشقة ومفتونة بك مثل تلك البنات والسيدات الأخريات، فقلت: أيتها الأخت الجاهلة، أن تبكى هذه الساعة أفضل لك من أن تبكى طول العمر.

فاستعادت حالتها بالتدريج، ووعدَت بأنها لن تهتم بك مرة أخرى، لكنها أخذت منى عهدًا بأن أسعدك...

بينما كانت هى تشرح بالتفصيل لقاءها مع "هلن"، كنت أنا أشعر بالخجل والألم، فكنت أذوب وأغوص فى الأرض. أدركت أننى

كنت مخطئًا مائة مرة، عندما تخيلت منذ بضع دقائق أن "ليدا" أصبحت طيبة ودودة عاقلة... فصرخت من أعماقى قائلاً: أيها الموت نجنى!

فنهضت وقلت: أذهب قبل النوم وأقرأ جرائد ومجلات اليوم.

قالت: لقد وضعتها كلها على مكتبك، أنا أيضًا سأذهب كى أنام وأستريح، لأننى ينبغى أن أعد العُدة لأمر جلل.

جلست وراء المكتب فتحت الجرائد واحدة واحدة، لكن تصور القراءة أيضًا لم يكن لدىَّ ولم أستطع القراءة.

كنت أفكر فى أنه ليست هناك وسيلة للنجاة من هذا الدمار إلا الموت، لكنى كنت أتراجع للخلف من تصور أننى لا أكون فى هذه الدنيا ولا أرى "ليدا" مرة أخرى، كانت قدماى وكأنها تنزلق فى هوة عميقة، فكنت أفر هاربًا.

بين صفحات المجلات، وجدت ورقة ففتحتها، كان "ميشيل" قد كتب رسالة يقول فيها:

عزيزى "ويليام" التعس، خرجت عمتى من مكتبى الآن بعد أن شرحت لى معاناتك وسوء حظك. اطلعت على بعض تفاصيل حياتك، واحترق قلبى من أجلك، كيف يمكن ذلك، لقد كتب الزمان ألف مشقة، أسفل كل نعمة يمنحها لنا. لو لم تكن وسيمًا ما استطعت أن تخطف منى "ليدا"، لكن لأنك غير مجرب تخيلت أن الجمال وحده

يرضى المرأة، لا تعرف أن المرأة لا تقنع بأى شىء سوى المال والجاه. حالة الجنون هذه التى أصابت "ليدا" هى من الندم على أنها تركتنى وذهبت وراءك. معاناتك وسوء الحظ هذا، هو الانتقام الذى تأخذه الطبيعة منك من أجلى، لماذا لم أستطع أن أهدئ من حرقة عشق "ليدا"، مهما فعلتُ خلال هذين العامين!؟ لقد وجدت أنا عشر بنات أجمل منها، لكن لم تستطع أى واحدة منهن أن تحتل عرشها بقلبى. وليست لدى أى شكوى أو عتاب منك، فالدنيا ميدان قتال، أنا اختطفت "أليس" منك، وأنت أيضًا أخذت منى "ليدا".

ما فائدة إعادة الكلام؟ جميل أن نجد طريقة لحل هاتين المشكلتين بحكمة، أى مشكلة حياتك ومشكلة قلبى. حسب قول ذلك الطبيب ورأى عمتى التى تمثل العقل والحكمة، فإن علاج مرض "لــيدا" أن تبتــعد عنك. بالطبع أنتَ توافق على كلام الطبيب، لكننى لا أعتقد أنك تستطيع أن تتحمل آلام الفراق، إلا أن تكون عاشقًا حقيقيا، وتقبل أى ألم ومحنة من أجل المعشوق. لكننى أقولها صراحة، إن هذا كلام على ورق، فالعاشق الحقيقى لا يستطيع أن يبتعد لحظة عن المعشوق.

وعلى هذا فينبغى أن تمتد يد أخرى لمساعدة العاشق، كى يستطيع أن ينجز أمره، وتلك اليد الخارجية هى أنا، الذى سيبعدك بالقوة عن "ليدا"، أى أننى سأقدم غدًا طلبًا بما أريد منك، ولأنك لن تستطيع أن تعيد إلىّ أموالى، فسوف تذهب إلى السجن، فأخطف أنا

"ليدا"، وهكذا أخلصك من هذه المعاناة والعجز، وأخلص "ليدا" من هذا الجنون، ونفسى من معاناة الفشل. وبالطبع عندما تصير "ليدا" ملكًا لى، أخرجك من السجن، وأوفر لك وسيلة لاستكمال دراستك وحتى بضع سنين أخرى. فإذا كنت أنت حقًا تحب "ليدا"، فأوصها أن تسلم نفسها لى بعد أن تذهب أنت إلى السجن مباشرة.

ابن عمك وصديقك ميشيل

كانت استدلالات "ميشيل" صحيحة ومنطقية، كان ينبغى أن أذهب إلى السجن مقابل طلبه للمال الذى له عندى، لكنى لدىَّ دينان آخران ولن أستطيع أن أردهما إلا بدمى، الأول هو عمر "مادلن" وهدوؤها، والثانى هو عمر "هلن" ونجاحها، التى أخذتها من الجميع، ثم حطمتها.

حقًا كنت أحتاج إلى هذين المطالبين كى يطلبا منى رد حاجاتهم إليهم، من أجل الوصول إلى قرار حاسم فأتخلص من هذا المأزق، أستطيع أن أقرر قتل نفسى. ماذا كنت أفعل غير ذلك؟ ألم تقل "ليدا" إنها تهيئ نفسها لعمل عظيم؟ ألم يكن ذلك الأمر العظيم هو أن تتركنى غدًا وتذهب! الموت هو الملاذ الوحيد لى دون وجود "ليدا"...

***

كأننى قد مت وتحررت من سجن الحياة، وعذاب "ليدا"، ذهبت مطمئنًا مستريحًا إلى حجرة النوم كى أنام، رأيت أن "ليدا" تجلس على الفراش وكأنها مشغولة بالتفكير، حتى لا ترانى. كانت مقضبة الجبين حمراء الوجه، وعضلات وجهها تقبض وتتهلل من الحيرة والخوف والكراهية، كالشخص الذى يرى شيئًا مخيفًا.

لم أقل شيئًا واستلقيت، لكنى كنت لا أريد النوم، أنتظر حتى تنام "ليدا" وأنهض أنا، فأملأ عينى ووجدانى وللمرة الأخيرة بجمال ذلك الصنم، حتى يكون بخيالى عندما أقتل نفسى غدًا بجوار تلك البحيرة، بعد ساعة نهضتُ وأشعلت المصباح، لكنى رأيت أن "ليدا" لازالت تجلس بالوضع نفسه! قالت: لماذا لم تنم؟ قلت: أريد أن أرى وجهك وشكلك مرة أخرى قبل النوم، قبل أن أغمض عينيَّ ببعضهما البعض.

ضحكت وقالت: معك حق، شاهدنى جيدًا لأنها ستكون المرة الأخيرة التى ترانى فيها، فغدًا ستستريح من شرايين عينيك الجميلة...

وبدلاً من أن أشاهدها، أدرت رأسى وبكيت. أخذنى النوم من شدة البكاء والتعب، كنت أرى حلمًا بأننى فارقت الحياة وأغوص فى تلك البحيرة، وقد وقفت "ليدا" مع "ميشيل" على الشاطئ يشاهداننى.

بينما كنت فى هذا الحلم فجأة احترقت! اشتعلت بى النار فقفزت من المكان وأشعلت المصباح، لكنه لم يضئ! صرخت فى تلك

الظلمات قائلاً: "ليدا" أنقذيني! فعلا صراخ عويلها وهى تقول: واحسرتاه. واحسرتاه. واحسرتاه. هل فعلت أنا هذا الأمر! هل ارتكبت أنا هذه الجريمة؟! صحيح. صحيح. لم يكن أحد غيرى بالحجرة! واحسرتاه علىّ. واحسرتاه علىّ!..

لم أسمع شيئًا آخر. عندما أفقت، سمعت صوتًا رقيقًا لسيدة تسأل: ماذا تفضل أن تأكل؟ قلت: "ليدا" ألنت "ليدا" لماذا تغير صوتك؟

قالت: أنا لست "ليدا". أنا الممرضة، هنا المستشفى. فقلت: لماذا جئت إلى هنا؟ ولماذا لا ترى عيناى؟!

فسمعت بدلاً من الرد، بكاء ونحيبًا. فقلت: ماذا حدث؟ ارحميني وقولى لى. فقالت بصوت باك: لقد فقدت بصر عينيك...

فقلت: وهل سيعالج؟ قالت: للأسف لا أمل فى أن ترى.

فصرخت قائلاً: تكلمى، لماذا عميت عيناى؟ أنا الذى لا أعانى من ألم بعينىّ! ومن أعمانى؟ آه فهمت.. "ليدا"... "ليدا"... إذن فأين هى، لماذا لم تأت إلى فراشى!

قالت: هى فى السجن، صرخت قائلاً: ألا يعرفون أنها امرأة مجنونة! ومهما فعلت بى، فأنا أسامحها...

فقدت الوعى مرة أخرى، وعندما أفقت سمعت صوت رجل يسأل عن حالى. قال: أنا الطبيب وأنا أتأسف لحالك جدا، لكنى أتوقع

منك أمام هذه الواقعة المؤسفة أن تكون شجاعًا جريئًا، وتتقبل الأمر الذى عهد الله به إلى عبده الكفيف، برجولة وبلا شكوى.

قلت: أنا ليست لدى أى شكوى من العمى، لأنه حدث لى بيد معشوقتى، ولا أخاف من أنه ينبغى أن أذهب من المستشفى إلى السجن، لكن ما دامت "ليدا" فى السجن فلا تطلبوا منى الهدوء والصبر والشجاعة...

فسأل: لماذا ينبغى أن تذهب إلى السجن؟ فقلت: لأننى اقترضت من "ميشيل" مبلغًا ولم أسدده. قال: من هو "ميشيل"، وما المبلغ الذى اقترضته منه؟ حكيت له بالتفصيل، لكنه عاد إلى الوراء وأخذنى معه حتى وصلت إلى بداية الحياة، وتنبهت إلى أننى قد رويت للطبيب قصة حياتى من البداية إلى النهاية.

بعد لحظة من الصمت قال: هل من الممكن أن تروى هذه السيرة مرة أخرى خلال هذه الأيام القليلة التى ستكون فيها هنا بالمستشفى؟ قلت: تريد أن تشغلنى كى لا أشعر بالحزن، لكن اعلم أننى لن أستريح وأهدأ ما دامت "ليدا" لم تتحرر من سجنها.

فى الغد جاء الطبيب ومعه شخص يدعى "السيد..." كاتب، وقدمه لى وطلب منى أن أحكى له قصة حياتى مرة أخرى بالتفصيل وبإسهاب. كان ذلك الكاتب يربت على ظهرى ويقول: "فلتسعد فإن هذه الحادثة رغم أنها كانت السبب فى شقائك من الممكن أن نتدارك

جزءًا من هذا الشقاء، أى تأمين حياتك المادية حتى نهاية عمرك. أنا أقدم لك هذا العمل، أى أننى أكتب لك ومجانًا هذه السيرة، وأجد لك ناشرًا يشتريها منك.

فى اليوم التالى جاء صاحب مكتبة وقرر طبع ذلك الكتاب، ودفع لى مبلغًا ضخمًا من المال، وكان قد أرسل قبل ذلك القرض لـ"ميشيل"، كان لا ينكر بالنسبة لذلك المبلغ. تشاورت مع الطبيب والكاتب ضمنًا، بأن يتضمن ذلك الكتاب أيضًا نتيجة محاكمة "ليدا".

***

وهذه هى نتيجة محاكمة "ليدا" .

جاءنى المحامى المدافع عن "ليدا"، وطلب منى أن أكون رجلاً عظيمًا، وأتحدث بما يفيد "ليدا". عندما فهم أننى على استعداد بأن أضحى بروحى إضافة إلى عينى، فرح وشكرنى قائلاً: إن براءة هذه السيدة بمساعدتك لهى أمر حتمى، لأنه لا شبهة فى جنونها، وفى أن فعلها هذا جاء نتيجة لذلك، ولتقنع المحكمة أنت أيضًا بهذه الوقائع، وسيكون ذلك كافيًا.

عندما حملونى إلى المحكمة في اليوم الموعود و أجلسونى، لم أكن أعرف إلى أى اتجاه أنظر حتى أرى "ليدا"، أى أن يكون وجهى إلى تلك الناحية، لكنى سمعت صوتها وهى تقول: واحسرتاه علىّ. واحسرتاه علىّ.

ثم أخذ بكاؤها يرتفع من كل ناحية، وأنا أيضًا كنت أذرف الدمع.

أتى المحامى المدافع عن "ليدا" بالأدلة على مرضها النفسى وبراءتها، وقال: أفضل دليل على براءتها، هو أن تنصتوا إلى شهادة زوجها.

وقفت أنا لكنى بقيت صامتًا، فقال المحامى المدافع عنها: أعرف كم أنك متردد، لا تريد أن تحكى شيئًا عن تعامل زوجتك أو جنونها أمام الآخرين، لكن إذا كنت تحب براءتها ونجاتها، فينبغى أن تتحمل هذا العناء.

حكيت مضطرا، جانبًا من سوء ظنها وأوهامها الواهية، وشرحت جانبًا آخر من تلك المآتم المحرقة التى كانت تقيمها. كانت "ليدا" أحيانًا تبكى فى أثناء حديثى، وتقول واحسرتاه علىّ، هل كنت أنا مَن فعلت ذلك الذنب! هل أنا هذه التى أصابتك بهذه الآلام! "ويليام" عزيزى، أنت ملاك... أنا شيطان...

عندما وصلت بالحكاية إلى تلك الأخيرة، صرخت "ليدا" وأغمى عليها، ففقدت السيطرة على أعصابى وصرخت: أيها السادة يا منْ تريدون محاكمة إلهتى، أطلقوا سراح ليداى، حتى أتدارك ما أخذه منى الزمان، سلبنى عينىَّ المضيئتين.. وإن فاضت روحى

فدعوها تستأنف حياتها. والله خسارة أن تكون زهرة مثلها حزينة فى ركن من السجن.

بعد أن أفاقوا "ليدا"، قال المحامى: الآن أرجو من أم "ليدا"، أن تشرح لنا قصة حياتها، وأسرار نشأتها وكل ما يتعلق بتنشئة "ليدا" ومعاملتها، حتى يعرف السادة ما الدوافع وراء ذلك الجنون؟ كى تنجى ابنتها، دون خجل أو حياء.

فقامت أم "ليدا" وقالت بصوت متماسك من البكاء أحيانًا:

أنا السبب الحقيقى لكل هذا الشقاء، أنا التى ينبغى أن تعمى، أنا التى ينبـــغى أن يتم إلقاء القبـــض عليها ويلقى بها فى الســـجن. لا أعرف ماذا كنت قد أجرمت فى الأزل حتى يغفر الله لى ذنب الجمال والرشاقة، تلك النعمة التى هى أساس آمال الجميع...

لا أريد أن أدعى ذنب أمى، فكل الذنوب أنا أتحملها على عاتقى، لهذا لن أتحدث عن التربية، اتخذتها وسيلة للحديث عن الأم، أتحدث كثيرًا عن الطفولة، عن ذلك الوقت الذى تذكرت فيه أن كل ما كان يشغل خيالى هو جمالى، نتيجة لتشجيع الآخرين وتحريضهم، كنت دائمًا مدركة نعمة الله، ولم أتنبه إلى أى صفة أخرى، كنت أعتقد أننى لا أحتاج إلى أى تربية أو صفة أخرى، سوى الجمال. وما لدىَّ من مميزات! كنت أتصور أن أهلى وأقاربى والأصدقاء، وكل من يرانى فى المحلة والشارع لابد أن يكون محو جمالى، ويحبنى

ويعجب بكل كلمة أو إشارة منى، توقعت أن تهيئ الدنيا كل أنواع الهوى والهوس بجزء من جمالى، وأن أجمل الشباب وأغناهم وأشجعهم عليهم أن يطلبوا ودى فى المستقبل، وأننى سأختار الأفضل من بينهم جميعًا لخدمتى.

رفضت العديد ممن طلبوا يدى للزواج، لم أقبل منهم أى عاشق رغم أنهم لا يوجد فيهم أى نقص أو عيب، حتى قبلت "ألبرت" فى النهاية، ولكن أقول الحقيقة. كنت أعتبر نفسى مظلومة نادمة، لأننى كنت أعتقد أنه ليس جديرًا بجمالى، رغم ما لديه من مميزات. سرى هذا التذمر والندم وسيطر على تفكيرى، ومعاملتى بالنسبة لزوجى. بالإضافة إلى أننى عندما دخلت هذه الحياة، رأيت أننى لم أحقق ما كان بتصورى وخيالى عن الزواج، وأتعجب لماذا يفرض "ألبرت" علىّ حقوقًا! لماذا يطلب منى أن أفعل هذا، ولا أفعل ذاك! لم لا يكون عاشقًا ومطيعًا لى، مثل الأيام الأولى!

كنت أضع وجاهتى فى اختبار لعيون الآخرين، فكنت أرى أنها أفضل من "ألبرت" كثيرًا، كان الجميع يعرف قدر جمالى ويمدحونني رياء، كل منهم يعد بأن يشترى جمالى بثمن أغلى من "ألبرت" غير أنهم لم يطلبوا منى سوى الجمال...

لكنى ورثت العفة عن أمى، وتعلمتها منها، ولا أسمح مطلقًا للوساوس الملوثة أن تلوح فى أفق خيالى. فضلاً عن أن "ألبرت" كان يحبنى من القلب والروح.

ولأننى كنت عديمة الخبرة والمعرفة، كنت أتصور أن زوجى عكس الآخرين، لا يعرف قدر جمالى وأن قلبه مع أخرى، كنت فى كل يوم غير راضية عنه أكثر من ذى قبل، لكن فى الوقت نفسه أحبه أكثر. كلما تحدث مع واحدة أو رقص معها أو ضحك كنت أتأكد أنها منافستى، وكنت أشعر بالضيق لأن زوجى ليس لديه إحساس التمييز، ولا يرى أننى أجمل من تلك المنافسة.

كنت أطلب منه كل يوم طلبًا جديدًا، حتى أعرف هل حقا "ألبرت" عاشقى ومفتون بى؟ أو أنه يحب الأخرى أكثر منى، أو أنتقده بنقد مختلف، أو أعامله معاملة سيئة، حتى أرى إلى أى درجة يتحمل، متناسية أن أفضل وسيلة لإيلام الزوج وضرره هى سياسة الضغط، وضغطت بقوة كالبلهاء بهذه المعاملة، حتى هرب "ألبرت" المسكين متألمًا منى، ومن المنزل.

كان يخرج من المنزل فى الصباح الباكر، ويعود متأخرًا جدًا. كل هذا لأننى كنت مشغولة بجمالى ورغبات قلبى، ولا أعرف شيئًا عن مشاعر "ألبرت" وأفكاره، كان ذلك دليلاً على أنه مشغول بأخرى.

بدأ الضجر والشكوى والنزاع والصراع. كم تألم هذا الرجل الطيب كثيرًا، بسبب الغرور والعُجب والجهل، كان يتركنى ويرحل فى رحلات طويلة، طالت إحدى رحلاته حوالى أربع سنوات. كانت "ليدا" هى مؤنستى فى حزنى من الهجر والوحدة والعجز، كنت أحكى لها كل ما كان بقلبى من "ألبرت"، لم أنتبه أى سم كنت ألوث به فكرها وروحها.

لأننى كنت أعرف أن "ليدا" ستتفوق علىّ فى الجمال وسوف تعانى، كنت أعتقد أننى إذا فتحت عينيها وأذنيها على قدر جمالها وقيمته منذ الطفولة، فإنها لن تكون مثلى، أسيرة زوج لا يعرف قدر جمالها، ولن تعانى هى كل هذا الألم.

ولأننى كنت مغرورة، ثملة بجمالى ورغم أننى كنت فى الظاهر أقدم لها النصيحة، لكن فى الحقيقة كنت أحب أن يسرى هذا السم المكون من سوء الظن والغيرة والحقد والجهل الذى بوجدانى إليها. كنت أقول: اعلمى أن الرجال كلهم عديمو الشعور، لا يميزون بين القبح والجمال بعضه من بعض، تنبهى إلى أن الرجال كالمقترض الغشاش الذى لا يريد أن يدفع ثمن الجمال كلما استطاعوا ذلك، عليهم أن يقدموا الكثير ولا يعجبك، حتى يخلق الله لك ذلك الشهم الذى تكون لديه القدرة على عبادة هذا الجمال.

كانت آلام القلب هذه، والعبث الذى يتدفق من نبع الأنانية وعدم العقل، تستقر بوجدان "ليدا" كالنقش على الحجر. كثيرًا ما كانت تهرع إلىّ خائفة، وحين تأتى أمامى كانت تقول: أمى الحبيبة، أخشى ألا يعرف قدر جمالى، أخشى أن يفضل هذا الشهم واحدة أخرى قبيحة علىّ!. عندئذ ماذا أفعل...

استيقظتْ ذات ليلة من النوم، صرخت قائلة: يا أمى، أتوسل إليك، زوجى يرى تلك القبيحة أجمل منى، فلا تدعى زوجى يراها، ألقى ستارة سوداء على عينيه... أعميه.

كنت أسيرة تكبرى وجنونى، وإلا كان يجب أن أفهم "ليدا" من هذا الحلم، وأعرف أننى جعلت من ابنتى فريسة ذلك الكلام الهراء، وأنها تعانى من مرض نفسى "ماليخوليا" و"الفكر الثابت" يعنى الفكر الخطأ الذى أصبح يشكل محور كل أفكارها، ودائمًا يعذبها ويؤلمها ويؤدى فى النهاية بها إلى هذا العذاب.

لو لم أكن مجنونة، لكنت حاولت بكل ما لدى من وجد وعشق وحب لابنتى الوحيدة، أن أمحو من خاطرها ذلك الجنون وتلك الأفكار المريضة الخطيرة، ووضعت بدلاً منها أفكارًا سليمة.

كان ينبغى أن أقول: "ليدا" عزيزتى، ذلك الكلام الذى سمعته كله كان بسبب غرورى وجمالى، أى جهلى، فانسى كل ذلك وأنصتى إلىّ: إن الجمال إذا لم يقترن بالحب والمعاملة الرقيقة واللسان العذب،

والسماح والتضحية فهو لوحة رسام. الإنسان الجميل إذا كان منتبهًا لنفسه، ولا ينسى أنه جميل، فإذا طلب ثمنًا وقيمة للجمال فهو بائع، تاجر أجساد، وسوف يكسد سوقه عاجلاً أم آجلاً ؛ وإذا كان متكبرًا وأنانيا مغرورًا وسيئ الظن، فهو ثعبان جميل الخط فارغ، هو كائن قبضته وعيناه وقلبه ملوثة بدماء القلوب، حتى يجعله الزمان ينزف الدم من العين والقلب!...

كان ينبغي عليَّ أن أقول: إن أساس السعادة هو العقل والمحبة والطبع الجميل، ويزين هذا البناء بالجمال، لكن إذا أصبح الجمال سببًا فى خراب المنزل، فاطرحيه بعيدًا.

لكن ماذا يصدر عن الأم التعسة، التى خربت منزلها بسبب الغرور والجهل، إلا أن تجر ابنتها إلى يوم أسود.

كانت "ليدا" التعسة شاهدة عيان هذا الغضب والشكوى والبرود وعدم الحب والقسوة والصراع والأذى بمنزلنا، لم تتعلم منى سوى درس الغيرة وسوء الظن... أقسم بالله أنها ليس لها أى ذنب، سعادة الأشخاص وشقاؤهم وثوابهم وذنوبهم تكتب على قدم مربيهم، لو كنت علّمتُ ابنتى مبادئ الحياة وطريق السعادة، أى المحبة والأدب وجمال الطبع، بدلاً من أن أجعل منها دمية بلا شعور، لكنت أثمرت كيانًا صاحب قلب وفكر، اليوم لا يواسينى بعض الأشخاص بل على المجتمع كله أن يواسينى...

نعم فأنا سبب هذا الشقاء، أنا التى ينبغى أن تلقى فى السجن...

أيتها الأمهات، اعتبرن من سوء حظى، أعددن أولادكم للسعادة...

***

جاء الدور على "ليدا"، فقالت بصوت منخفض ومحطم من البكاء: ينبغى أن يلقوا بى إلى سجن أبدى، ينبغى أن أعدم فإن جرمى لا يغتفر، لو أطلقتم سراحى فسوف أقتل أنا نفسى.. إلا أن يقبلنى "ويليام" فى خدمته جارية له، أرى صورة جريمتى المحرقة كل لحظة، فأموت من الندم والحسرة، وأعيش على أمل خدمته.

***

فوقفت أنا وقلت: أيها السادة المحكمون، أيها الأشخاص، يا من جعلكم المجتمع آباء، تعرفون آلام القلوب، لقد أعمى الزمان نور بصرى فأعطونى أنتم "ليدا"، وبها تشعلون قنديل قلبى...

***

تحررت "ليدا"، أمسكت "ليدا" بيد "ويليام" وأخذته إلى المنزل وسط بكاء الحضور وسعادتهم.

***

وهذا هو بيان حال "ليدا":

تريدون مني أن أكتب قصتي. أنا ليس لديَّ قلم ولست كاتبة، لو كنت هكذا، فأنَّى لي أن أرسم لكم تلك الصور المخيفة للفكر، التي وردت بفكرى في ذلك الاضطراب وظلمة الروح، و متى أستطيع أن أفسر لكم هذه الحالة العجيبة، المركبة من حيرة وخجل وحزن وحياء وعشق، ومائة غم وحرقة أخرى.

حكت أمي أسباب جنوني، فماذا أقول أنا، البنت التي تعبد نفسها، ويكون الوجود الذى هو معبودها، لابد أنها ككل العباد، تريد أن يعبد الآخرون صنمها. كل ما أتذكره في طفولتي هو أنني لم يكن لديَّ فكر أو شاغل إلا جمالي، وهل أنا اليوم أجمل أو الأمس، هل هذا الفستان وهذه الزينة تزينني أفضل أو الأخرى، هل ترى كل العيون هذا الجمال؟ وأي قلب يحترق أكثر من الغيرة، لم يكن لديَّ ما يشغلني، ما أكثر ما كنت أقتفي أثر فكرة تؤدى بي إلى الجنون.

كنت عاشقة للشعر والموسيقى، لكن من اللحن والصوت الذى كنت أسمعه من العبَّاد في وصف جمالي، مع الأمل والرغبة، كنت متأكدة من أن عاشقي أو من يطلبني للزواج سوف يخطب بلغة الشعر والموسيقى هذه، لكني رأيت للأسف أنه لم يكن لأى ولد من الأولاد، لغة رقيقة ومليئة بالفتنة هكذا!

كل كتاب كنت أقرأه، كنت أضع نفسى بدلاً من تلك السيدة، التى كانت موضع الخيانة أو التى تتعذب على يد زوجها لأى سبب، كل ذلك كان يرسم المستقبل فى عينى أستارًا مخيفة.

كانت نصائح أمى وهى تقول بأن الرجال جميعًا بلا شعور. لا يميزون بين القبح والجمال، وهم كالمقترض الغشاش، لا يريدون أن يدفعوا قيمة الجمال، وينبغى أن يأتوا بالكثير ولا يعجبك، حتى يخلق لك الله ذلك الشهم الذى يكون جديرًا بعبادتك...

ونصائح أخرى لها من هذا القبيل، دائمًا تدور فى رأسى، وتتحول إلى مقطوعة سيمفونية مليئة بالاضطراب والحرقة، تدور كلها حول قصة واحدة، أحيانًا تُسكر وأحيانًا تحرق. تفكيرى دائمًا يدور حول جمالى، فكنت يومًا ثملة ومغرورة من تصور وجاهتى، وليلة أخرى فى جدال من تخيل الفشل فكنت مضطربة وباكية، ومرة أخرى كنت مع زوج خيالى فى مناقشات وهمية.

كما أن ذرة مَرارة واحدة، تفسد الحلوى وتجعلها أكثر مَرارة، فى النهاية تحول كل هذا السرور والسعادة والثمالة بالجمال، تحول دفعة واحدة فى خاطرى إلى تشاؤم واضطراب وخوف من تصور الفشل. كنت أخاف من الرجال كما أخاف من الأفاعى، لكنى كنت أقذف بنفسى لا إراديا فى شِراكهم مثل العصفور المسحور. لا أعرف

لماذا كنت أتمنى أن أواجه ذلك الخطر العظيم وجهًا لوجه، أى أن أرى الخيانة وعدم الوفاء من الرجال، أتصارع معهم وأتعارك.

خُطبت مرتين ثلاثًا، جربت معهم جميعًا تلك الروح المتشائمة والوجدان المليء بسوء الظن، كنت أفترض فى خيالى أدلة على خيانتهم، أعذبهم وأولمهم حتى يفروا منى. يا ليت " ويليام" المسكين كان قد هرب هو الآخر من شرك جنونى، لكن ذلك لم يتحقق، فكان ينبغى أن يضحى هو بعينيه، كى أنجو من هذه الأوهام الواهية والجنون! يا ليت الحادثة كانت بالعكس، وكنت فقدت أنا عينىّ فى سبيله.

لو كنت أبقيت على خطبتى لـــ "ميشيل" شهرين أو ثلاثة، فقد كان ذلك بسبب إصرار أمى، لأنها كانت تريد أن يكون زوجى ثريا، و إلا فإننى كنت أرى أنه أكثر خيانة من الآخرين، وذلك حسب هستيريا الغيرة التى كانت لدى آنذاك.

فى تلك الليلة التى رأيت فيها "ويليام" فى حفل الأرواح هذه، تأكدت أنه أكثر هوسًا وخيانة من"ميشيل" أيضًا، لأنه إذا كان ميشيل يجرى وراء الأخريات، فقد كان واضحًا أن "ويليام" بما لديه من قدٍّ وهيئة وحُسن، تجرى وراءه الأخريات. إذن فلماذا استسلمت له كالمجنونة؟ لماذا "ويليام" المسكين؟ أى ذنب ارتكب حتى أختاره

وبجدارة منذ الوهلة الأولى، ألقى بقيد وجودى حول رقبته، وأجُره إلى هذا الشقاء!؟

الآن.. أعرف أن نعمة الجمال، هى ذنب كتبوا بقدمه مائة عقوبة...

حقا، كان ذنب "ويليام" هو الجمال... القدُّ والهيكل والشكل نفسه الذى كنت أتمناه فى الحلم. قبل أن يطلبنى هو لأكون زوجته، كنت أنا عاشقة له وأسيرة، وبعد ذلك أصبحت زوجته، مع أننى كنت أتصور أنه لابد سيكون أكثر خيانة من الجميع، لأنه أجمل منهم جميعًا، لكنى تأكدت أنه من المستحيل أن أتركه.

يا أمانى... ماذا ارتكبت من معصية، حتى أُكلف بالانتقام من جمال"ويليام"!؟

صحيح كان ذنبى أنا أيضًا هو الجمال... "ويليام" أيضًا كُلف أن ينتقم للجمال منى، لكنه أنجز عمله أفضل منى. فإذا كان الآن يرى العالم الخارجى مظلمًا، فأنا مسكينة، قلبى ينزف الدم دائمًا من الندم والخجل والحسرة. هو مظلوم ومحبوب من الجميع، وأنا ملوثة وظالمة ومكروهة. هو سيكون ملكًا علىَّ وحاكمًا طوال عمره، بسبب عظمته وعفوه، وأنا سأكون جاريته المطيعة طوال العمر، بسبب الخجل والوضاعة... أنا أراه كل يوم أجمل، فأعبده أكثر، لكنه لا يرانى فيذهب جمالى هدرًا.

لقد وضعنا نحن الاثنين فى محك العشق، اتضح منه أننى شيطانة وهو ملاك. فليس هناك محك لمعرفة فطرة الإنسان وطبعه أفضل من العشق، فذلك له فطرة وطينة ملاك، ظهرت من موقد العشق أكثر طهرًا ونورًا وحبًا وعطاء. وتلك ذات خصال شيطانية... فتصبح حسودة وحقودة وسيئة الظن وسيئة السريرة أكثر من الشيطان.

لكنى حقا لم أقل متى ينسى الشيطان طبعه، إذا كان عاشقًا حقا. أنا لم أكن عاشقة، أنا كنت مغرورة، أردت أن أبيع جمالى بجمال آخر، أردت أن أربط وجودًا آخر بوجودى وأمرى، وأحصل منه على كل ما افترضته ثمنًا لى.

لم يكفنى جماله وحبه وخلقه الطيب وكرمه، حتى أتأكد أنه يعرف قدر جمالى، بل كان لى طلب آخر بألا تقع عينه على أخرى!

فإذا كان العشق والمحبة يوصلنا إلى جنة الفضل والعدل والإنصاف فإن الشهوة والغرور تؤدى بنا فى النهاية إلى الجنون والظلم والشقاء. تحدثت أمى فى المحكمة عن البذور التى غرستها فى وجودى من تكبر وغرور وظلم، فأثمرت تلك البذور وجعلتنى مجنونة؛ كنت دائمًا أراقب عين "ويليام"، كنت أعتبر كل نظرة ينظرها إلى بنت أو سيدة، علامة على عدم الوفاء والخيانة. جعلت

من أبسط كلمة وحركة له تعبيرًا غير محبب، وكالشيطان أشعلت نار التشاؤم وسوء الظن ببيدر قلبي.

الحلم والخيال يمتزجان لدي بعضهما ببعض، كنت أتصور في الحلم واليقظة، أنه طلقني وأتى مكاني بواحدة من تلك السيدات المسنات، كثيرًا ما كنت أستيقظ من النوم، وأرى أنني وحدي في الفراش، لكني لا أصدق، فكنت أغمض العين وأفتحها، فأرى تلك السيدة العجوز مكاني، وأجرح روحي بألم الحسرة والندم. كنت أتمنى أن أعرف أنه خائن ومذنب فأعذبه ونفسي.

لكن لم أكن أعرف عقوبة وعذابًا كافيين له، ودائمًا أفكر في الزجر والطرد، حتى سمعت أحد الناصحين يهمس في أذني بصوت منخفض ومبهم يقول: إذا ألقيتِ ستارة سوداء على عينيه، سوف تستريحين من شر كل هؤلاء المنافسات...

كنت أخفي وجهي بين يديّ من هذا الوسواس الشيطاني وأزأر، لكن كأن أفعى مخيفة تلتف حول رقبتي وتقول: أنا سوف آخذ منافسي هذا الذي يسمى "ويليام" منك، ألا تعرفين أن هذا المسكين يفضل القبح على الجمال، ويحبني أكثر منك!؟ الذنب ذنب عينيه، فهي تراني أجمل منك، أظلمي هذين العينين، حتى لا ترى قبحًا مرة أخرى..."

كانت هذه الأفعى تلتف برقبتي كلما حاولت أن ألجأ إلى فكر آخر أو اهتمامات أخرى، كانت تقبض حلقي من الكره والحقد والبكاء. قصدت مرات أن أقتل نفسي أو أسافر، لكن لم تكن لديّ قدرة على الابتعاد...

وأسفاه لأنني لا أستطيع أن أكتب عن تلك الليلة المفزعة والمحرقة... دموعي تنهمر وأرتعش... ويسقط القلم من يدي...

....

....

عندما رأيت ذلك المنظر في تلك الليلة، كأنني سقطت من مكان مرتفع في الحلم فاستيقظت، وعرفت منذ الوهلة الأولى بما فعلت بسبب جنوني، وأدركت عاقبة أمري، أبلغت المستشفى فورًا وسلمت نفسي للشرطة. والباقي تعرفونه...

يا "مادلن" الملائكية الطبع، يا "هلن" غير الموفقة، لقد حررتني المحكمة بلا أدلة، تعاليا وعاقباني، فجريمتي لا تقبل العفو. هل تعرفان عقوبة أكثر من هذه، وهي أن أرى نتيجة جريمتي ما دمت حية، وأفقد الروح يوميا مائة مرة بسبب عذاب الندم والحسرة؟ إذا كنتما تعرفان، فتعاليا وقولا لي... وأنا سوف أقبله بالقلب والروح...

***

المؤلف فى سطور

ولد محمد حجازى مطيع الدولة سنة ١٨٩٠م، ودرس العلوم السياسية فى باريس، وارتبط منذ عودته من البعثة بالحياة الإدارية تمامًا، فرأس هيئة تربية الأفكار التى أسسها "رضا شاه" للتوجيه الجماعى لعقل الأمة الإيرانية، كما رأس الإذاعة الإيرانية فترة من الزمن، ثم شغل مقعدًا فى مجلس الشيوخ حتى وفاته سنة ١٩٧٤م.

المترجمة فى سطور

سامية شاكر عبد اللطيف محمد سلامة

- مدرس بقسم اللغات الشرقية وآدابها، كلية الآداب، جامعة حلوان – ليسانس الآداب – جامعة القاهرة
- ماجستير اللغات الشرقية وآدابها عام ١٩٩٦م.
- دكتوراه اللغات الشرقية وآدابها عام ٢٠٠٢م.

المراجع فى سطور

محمد علاء الدين منصور

- أستاذ اللغات الشرقية فى كلية الآداب، جامعة القاهرة.
- له العديد من المؤلفات والأبحاث والترجمات، ومن أشهر مؤلفاته وترجماته:

تاريخ إيران بعد الإسلام، وتاريخ سلاجقة الروم، والشعر الإيرانى الحديث. نُشرت له ضمن المشروع القومى للترجمة عشرون ترجمة من عيون الأدب الفارسى، ومنها روايات: ثريا فى غيبوبة، والأرضة، وشتاء ٨٤، ورق العشق، والخفافيش، وموت المرابى. وسلسلة من الشعر الإيرانى من البداية حتى زمننا المعاصر. والجزء الثالث والرابع من تاريخ الأدب فى إيران تأليف المستشرق المعروف إدوارد براون.

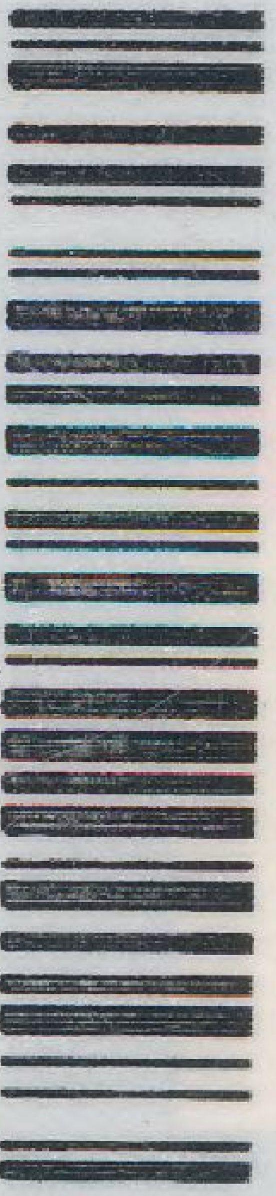
التصحيح اللغوى: ريبال الحسانى
الإشراف الفنى: حسن كامل



الدموع

يحمل كل شخص ذكريات طفولته الأولى، وما يتعلق بذهنى من فترة الطفولة هو ذكرى ذلك اليوم الذى جمعت فيه جدتى أطفال الأسرة بمنزلها وأقامت مسابقة للجمال، وكان بالمجلس أيضًا بعض الرجال والنساء من غير أعضاء الأسرة، ولم أكن قد رأيتهم قبل ذلك اليوم. كنت أشعر بالضيق لوجودهم، وكان لأحدهم لحية طويلة ولعل أكبر خوفى كان من ذلك الرجل، قدم لى قطعة حلوى وضحك فى وجهى. تحيرت لتلك الضحكة التى لا تتفق وتلك اللحية السوداء، لم أكن أعرف هل ينبغى علىَّ أن أسلم للضحكة والود أو أخاف من اللحية الطويلة.

عاصر "محمد حجازى" فترة دقيقة من تاريخ إيران، وتأثرت حياته بما شهدته تلك الفترة من اضطرابات وقلاقل، ورواية "الدموع" تمثل هذا الاتجاه الحديث، فهى تصور أخلاق المجتمع البرجوازى وعاداته وما يعانيه من مشكلات.





الإبداع القصصى